سلسلة خزانة التراث

الفراهيدي
عبقري من البصرة

الدكتور: مهدي المخزومي

الفراهيدي

عبقري من البصرة

تأليف

الدكتور مهدي المخزومي

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

الطبعة الثانية ـ بغداد ـ ١٩٨٩ ـ

طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي
حقوق الطبع محفوظة
تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

الطبعة الأولى - بغداد - ١٩٧٢ - مديرية الثقافة العامة بوزارة الاعلام - مطبعة الجمهورية

الاهــــداء

الى الذي لم تسعده همته أن يتلمذ للخليل . وأسعده حظه أن يمتلك تراث الخليل ، وجرأه زهد الخليل وتواضعه أن يصيح في تراثه نهبا .

الى أبي الحسن سعيد بن سـعدة الأخفش

المقــدّمة

كنت قد تلمذت للخليل وصحبته ، وقد أفدت من التلمذة ، وأنست بالصحبة ، وأحسبني كنت من تلاميذه الأوفياء ، فما برح الخليل مرجعي إذا ألمت بي حاجة إلى توضيح غامض ، وتبيينِ مبهم ، وما زال مرجع الدارسين جميعا ، فقد كان أستاذ الاساتيذ وعلم الأعلام منذ ان تصدّر مجلس الدرس .

وكنت يومئذ بذلت ما هيّء لي من جهد لاستشفاف روح الخليل وعقله ، واستكناه علمه ، وتقدمت بما تيسر لي في صورة رسالة جامعية حصلت بها على درجةالماجستير ، وقد انتهيت منها وفي أعماقي شعور بأني لم أوفّ الرجل حقّه ، ولا استطعت أن أرسم له صورة مكتملة ، ورحت بعد ذلك أشتغل في موضوع آخر ، ولكني لم أنس الرجل ، ولم يضعف إعجابي به وبما قدّم للعلم وللحضارة من أقباس ،وللتاريخ العربيّ الاسلاميّ من أسباب الاعتزاز والفخر ، وبقي المثل الأعلى الذي يطمح الدارس أن يتشبه به ، ويتشبث بالأسباب التى تدنيه منه .

وحانت فرصة بعد تخرجي أن أجدّد العهد به ، وإن لم تنقطع صحبتي له ،وأن أردّ له بعض ماله عليّ ، وأدفع عنه بعض ما أستطيع دفعه ، فرجعت إلى رسالتي التي ازدانت بأن الخليل كان عنوانها ، فأردت أن أسدّ بعض الثغر ، وأستدرك بعض مافات همي ومطّلبي ، فكانت تعليقات ، وزيادات ، واستدراكات ، وكنت أنتظر الفرصة لالحاقها بالأصل ، وإخراج الكتاب اخراجا جديدا ، يقوم مقام الاعتذار اليه .

ثم اقترب الموعد مع المربد فأنبئت أن اليوم الثاني من أيامه هو يوم الخليل ، يجدد الدارسون العهد به ، وليت أيام المربد كلها للخليل ، ولو فعلنا ذلك لما وفينا بعض ماله علينا ، وليس كثيرا على الخليل أيام بعدة أصابع اليد بعد أن أفنى عمره في المربد ، يخدم اللغة والعلم ، يصغي الى خطبة هذا الخطيب ، ويستمع لانشاد ذلك الشاعر ، ويتلقف الفصاحة من الأعراب

الفصحاء الذين جاءوا للجلب والميرة ، يسمع منهم ، ويأخذ عنهم ، ويراقب أساليبهم في الحديث ، ويضيف ذلك الى حصيلته ، والى ما شب عليه من سليقة عربية سمحة ، وطبع عربيّ رضيّ ، ويفحص ذلك كله بثقوب فطنته ، وفرط ذكائه ، وحدة ذهنه ، ليعود من ذلك الى الدارسين من تلاميذه ، والآخذين عنه بنتاج عبقريّ لا يرضى بما دون الابتداع ، ولا يرجو من ذلك نوالا ، فقد كان يكفيه من حياة المادة ما يقيم به أوده وأود عياله ، ويغلق عليه بابه ، فلا يجاوزه همّه ، وتأكل الدنيا بعلمه ، وهو في خصّ لا يشعر به .

ثم وجّهت الدعوة اليّ أن أكتب بحثا في أعمال الخليل وتأثيرها ، فلم أجد لديّ جديدا غير تلك التعليقات والزيادات ، والاستدراكات ، فاستللتها من مواضعها ، وحشوت ما بينها ما سمح الوقت ، فكانت هذه الفصول التي اجتمع بها شتات التعليقات وادّنى تباعدها ، وكنت بها اتوخى رضاه قبل رضى غيره ، وأزجيها اعتذارا خجلاً متواضعا ، فان وفيت بعض ماله على الدارسين ، والا فقد بذلت ما وسعني من جهد .

بغداد في ٩ـ٣ـ١٩٧٢

البصـــرة

بعث عمر بن الخطّاب إلى سعد بن أبي وقاص بعد فتح المدائن وهزيمة الفرس : « أن حط قيروانك بالكوفة ، وابعث بعتبة بن غزوان الى أرض الهند (بهذا الاسم كانت تعرف منطقة البصرة) ، فان له من الاسلام مكانا ، وقد شـــهد بدرا » [١] .

نزل عتبة بن غزوان الخريبة في ثماني مئة ، فكتب الى عمر بعد نزوله إياها ، يستأذنه في اختطاط البصرة ، لأنه « لابد للمسلمين من منزل يشتون به إذا انصرفوا من غزوهم » [٢] ، فأذن له بذلك ، ومصّر البصرة ، بنى مسجدها من قصب ، وبنى دار الامارة دون المسجد ، ثم خططت السكك ، وبنيت الدور ، وشيدت مساجد الأحياء ، وشقّت الجداول فيها ، وحفر زياد أيام ولايته البصرة نهر الأبلّة ، ونهر معقل .

ولمّا ولي أبو موسى الأشعريّ البصرة نزع القصب ، وبنى المســجد ودار الامارة باللَّبِن ، ثمّ وليها زياد فبناهما بالجِصّ والآجُرّ وسقفهمـــا بالســـاج [٣] .

وأول دار بنيت بالبصرة دار نافع بن الحارث بن كَلَدة الثقفيّ ، ثم دار معقل بن يسار المُزَنيّ ، وامدّت المدينة عتبة بن غزوان بالرجال ، وكثر الوافدون اليها ، وأخذت البصرة تزدهر ، ومجتمعها يكبر ويتعقّد ، وبنى حولها سبع دساكر من لَبِن ، منها في الخريبة اثنان ، وفي الزابوقة واحـــدة ، وفي بني تميم اثنان ، ونزل البصرة أربع بيوتات عربية : بيت بني المهلّب ، وبيت بني مسلم بن عمرو الباهليّ ، وبيت بني مسمع ، وبيت آل الجارود .

وكان أول مولود بها هو عبدالرحمن بن أبي بكرة ، وكان أبو بكرة هذا أول من غرس النخل بالبصرة « وقال : هذه أرض نخل ، ثم غرســ الناس بعده » [٤] . ثم أخذت رقعة البصرة تتسع ، وسكانها يزيدون ، حتى قدّرت

---

(١) ابن الفقيه ــ مختصر كتاب البلدان ١٨٨ ليدن .
(٢) البلاذري ــ فتــوح البلدان ٣٥٤ .
(٣) ابن الفقيه ــ مختصر كتاب البلدان ١٨٨ .
(٤) ياقــوت ــ معجم البلدان ١/٤٣٢ .

مساحة رقعتها أيام زياد بأربعة فراسخ مربعة ، وقدّر مقاتلة العرب بثمانين ألفا ، وعيالاتهم بعشرين ومئة ألف (٥) .

وقد نزلت القبائل العربية في ظاهر المصر الجديد ، كما جرت عادتهم ، وأنشئت الأسواق بينهم ، وأنشئت سوق تعرف بسوق الابل ، يبدو انها كانت مناخا للإبل ، أو متّجرا بها ، لأنها كانت ملتقى البدو القادمين من البادية بالحضر المقيمين في المصر لتبادل السلع .

وكانت البصرة ملتقى الطرق التي كان يسلكها التجار القادمون من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق ، والصاعدون من الجنوب الى الشمال والهابطون من الشمال الى الجنوب ، كان موضع البصرة كذلك من قبل أن تمصّر ، وكان أعراب الجزيرة على اتصال بهذا الموضع ، يقصدونه للجلب والميرة ، وللتزود بما كانوا يحتاجون اليه . ولم يفقد الموضع مكانته عند البدو بعد أن اختير مستقرا لجيش المسلمين وللبيوتات العربية التي كانت تمدّ الجيش بالعدّة والعدد ، ولم ينقطع النوافد إليه بعد أن مصّرت البصرة، وازدهرت الحياة فيها وامتد العمران في أرجائها ، ونشطت التجارة والزراعة فيها ، وسائر الأعمال المختلفة التي يحتاج إليها هذا المجتمع ، وكل مجتمع .

وكانت الأقوام التي تفد على البصرة من وسط الجزيرة تجد في مشارف المصر وأطرافه مكانا صالحا للإناخة ، وكان سكان المصر يعرفون ذلك ، وينتظرون ، فاذا أناخ الأعراب إبلهم أقبلوا عليهم بما يحتاجون اليه .

وحال المناخ الى سوق ، وأخذت هذه السوق تتسع شيئا فشيئا ، وتكبر شيئا فشيئا حتى صارت حيّا كبيرا من أحياء البصرة ، وموضعا نشطت فيه الحياة ، وازدهر فيه الاتّجار وتبادل السلع ، وصارت المواسم التي يفد الأعراب فيها على هذه السوق أشبه ماتكون بالمهرجانات ، وصارت هذه السوق في هذه المواسم أشبه ماتكون بالأندية ، يتناشد فيها الشعراء ، ويتنابها الفصحاء من الأعراب وعلماء البادية ، ورواة الأخبار والأيام ، ويفيد منهم الناشئون والدارسون . يستمعون إليهم ، ويشافهونهم ، ويأخذون عنهم الغريب واللغات .

---

(٥) ياقوت ١/٤٣٤ .

وكان ابناء العرب وأبناء غير العرب يكثرون من الخروج الى هـذه السوق ، ليشافهوا الفصحاء ، ويتلقفوا الفصاحة ، واكتسبت هذه السوق شهرة عظيمة بين الأعراب ، وسميت هذه السوق بالمِرْبَد ، لأن الابل تنيخ فيها ، والمربد ، كما قال الأصمعيّ ، كل شيء حبست به الابل والغنم ،أو لأنها الموضع الذي يباع فيه التمر « والمربد للتمر كالبيدر للحنطة » ،أو لأن المربد هـو الموضع الذي يجفف فيه التمر لينشف (٦) .

وأخذ الدارسون في البصرة من رواة الأشعار والأخبار ، وطلاب اللغة يختلفون إلى المربد ، يستكثرون عن فصحاء الأعراب ويستمعون الى محاوراتهم ، والى ماكانوا يتناشدونه ، والى ماكانوا يتناقضون فيه ، وكان شعراء القبائل يتوافدون الى المربد للتناشد والتكاثر ، وقد بلغ ذلك القمة بجرير والفرزدق وراعي الابل وغيرهم .

وكان كثير من أدباء البصرة يتلقفون الفصاحة من العرب شفاها بالمربد ، ومن بين أولئك ، عبدالله بن المقفّع ، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ولاشك أن للمربد عليهما يداً فيما بلغاه من فصاحة منطق ، وجزالة أسلوب .

ولم يطلّ القرن الثاني على البصرة حتى كانت البصرة مثابة للدارسين ، ومقصدا لطلاب العلم من سائر الآفاق ، ومفخرة من مفاخر العرب والمسلمين، ومركزا ثقافيا اتسع مدى صيته حتى اجتاز البطاح والوديان ، واجتاز الجبال والبحار ، وعلا صوته حتى أصاخ له من فيما وراء النهر ، ومن في المغرب الأقصـى .

وأدلّت البصرة على سائرالأمصاربالبيوتاتالتي نزلتها، وبالرجالاتالذين لم ينجب مثلهم مصر ، فقاهة وبلاغـة وتدينا وزهدا وعلما وأدبا ، كالحسن البصريّ والأحنف بن قيس ، وطلحة بن عبدالله ، ومحمد بن سيرين ، ومالك بن دينار ، والخليل بن أحمد .

وكان الداخل الى البصرة يجد الرزق والمال ، ولا يطيب له الانصراف عنها ، وكان زياد يحب البصرة ، ويفضلها على غيرها ، ويتغنى باسمها ، وكان يقول : « لو ضلّت البصرة لجعلت الكوفة لمن يدلني عليها » (٧) .

---

(٦) لسان العرب ٣/١٧١ بيروت .
(٧) ابن الفقيه ــ كتاب مختصر البلدان ١٩٠ .

ووصف ابن أبي عُيَيْنة المهلبي * البصرة فقال :

يا جنة فاقت الجنان فما ... يعد لها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطنا ... إنّ فؤادي لمثلها وطن
زوّج حيتانها الضباب بها ... فهذه كنة وذا ختن
فانظر وفكر لما نطقت به ... إنّ الأديب المفكّر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة ... ومن نعام كأنها سفن (٨)

ووافق أن اجتمع عند عبدالملك بن مروان وفود الأمصار ، فسئلوا عما شاهدوه في الشام من حدائق وبساتين وكروم ، وطلب إليهم أن يوازنوا بين ماشاهدوه وما عندهم في أمصارهم ، فبيّن كل وفد ما في مصره ، فلما سئل وفد أهل البصرة تكلم * خالد بن صفوان فقال : « يغدو قانصنا فيجيء بالشبّوط والشيم ، ويجيء هذا بالظبي والظليم ، ونحن أكثر الناس عاجا وساجا ، وخزًا وديباجا ، وبرذونا هملاجا ، وخريدة مغناجا ، بيوتنا الذهب ، ونهرنا العجب ، أوله الرطب ، وأوسطه العنب ، وآخره القصب ، فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته ، هذا على أفنانه كذلك على أغصانه ... الخ » (٩) .

وقال الأصمعي * ، فيما يروي ياقوت ، : « سمعت الرشيد يقول : نظرنا فاذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة » (١٠) .

واذا كانت الكوفة معسكر المسلمين ، وقاعدة للخلافة فقد كانت البصرة مقاما للدارسين ،ومطمأنّا للخائفين ، وإذا شغلت الكوفة مركزا في السياسة مهمّا فقد شغلت البصرة مركزا في الثقافة مهما أيضا ، واذا كانت العناصر العربية في الكوفة لم تشارك سكان الكوفة فيما كان يحتاج إليه مجتمع الكوفة من مهن وحرف وأشغال ، لأنها تمثل الطبقة الحاكمة التي بيدها زمام الحكم وقيادة الجيش ، وتصريف الأمور فان العناصر العربية في البصرة كانت تشارك غير العرب فيما كانوا يعملون ، وتخوض معهم فيما كانوا فيه يخوضون ، وتتصل بهم او تحيا حياتهم، وقد اشتغل العرب بالزراعة فيالبصرة منذ تمصيرها،

---

(٨) معجم البلدان ٤٣٨/١ .
(٩) المصدر نفسه .
(١٠) معجم البلدان ٤٣٩/١ .

وكان أبو بكرة أخو زياد لأمه أول من غرس النخل بالبصرة ، وبنوا الحمامات، وكان أول حمام اتخذ في البصرة حمام عبدالله بن عثمان بن أبي العاص [11] ، واشتغلوا بالتجارة واختلطوا بغير العرب فأصهروا بهم وأصهروا إليهم، وكانت أم عبيدالله بن زياد زوجا لشيرويه الأسواري ، ونشأ عبيدالله مع أمه، فتأثر بهم لسانه، وأحدث ذلك في لسانه لكنة ، وكان زياد قد أوفد ابنه الى معاوية « فكتب اليه معاوية : إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم لسانه » [12] وكان يلثغ بالقاف فيقلبها كافا ، وسمع يوما يقول : افتحوا سيوفكم ، يريد : سلوا سيوفكم ، وبلغ ذلك يزيد بن مفرغ الحميري ، وكان يبغض آل زياد ويهجوهم ، فهجاه معيرا إياه بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكل أمرك للضياع

الى غير ذلك من الأمثلة التي لا مجال لسردها هنا .

كان لاختلاط العرب بغيرهم أثره في ضعف السلائق ، وانحراف الألسنة، وظهور اللكنة ، وفشو اللحن ، ووجد ذلك طريقه الى القرآن الكريم ، فقد أخذ الأجانب ، منذ الفتح ، يدخلون في دين الله أفواجا ، وكانت قراءة القرآن وإقراؤه مما دعا إليه الإسلام ، ودعت اليه الأحاديث من مثل : « خيركم من قرأ القرآن وأقرأه » ، لأن القرآن كتاب المسلمين ودستورهم ومصدر شريعتهم ، فكان الناس جميعا يقرءون ، وكان الأجانب من فرس وغيرهم يقرءون وليس لهم سلائق العرب ولا ملكاتهم ، وكان القرآن مكتوبا بالخط العربي ، وقد أنزل بلسان عربي ، وكان الرسم العربي مهمل الحروف لا يتميز بعضها من بعض ، فاذا كان العرب يميزونها بعضها من بعض ، ويفرقون بين المرفوع والمنصوب والمجرور عن سليقة فلم يكن الفرس ولا غيرهم ليسهل عليهم ذلك.

وإذ اتخذ اختلاط العرب بغيرهم في البصرة طابع الاندماج كان رد الفعل عند العلماء البصريين قويا قوة الخطر المحدق بلغة القرآن ، ولغة العرب، ولذلك كانت المبادرة الى العمل اللغوي في البصرة قبل غيرها ، وكان ظهور الدرس اللغوي والنحو في البصرة قبل غيرها ، والتاريخ يحدثنا أن أبا

---

(11) كتاب مختصر البلدان ١٩٩ .

(12) البيان والتبيين ٢/٢١٣ .

الأســود الدؤلي البصري كان أول من بادر الى الخطوة الأولى في العمل القرآني ، فهو الذي نقط المصحف نقط إعراب ، وهو الذي رمز لمضموم الآخر بنقطة توضع بين يدي الحرف ، ولمفتوحه بنقطة توضع فوق الحرف ، ولمكسوره بنقطة توضع تحت الحرف .

ويحدثنا أن نصر بن عاصم الليثي البصري أحد تلاميذ أبي الأسود كان قد قام بتحقيق الخطوة الثانية في العمل القرآني ، فهــو الذي ميز الحروف المتشابهة في الرسم بعضها من بعض ، وهــو الذي نقط المصحف نقط إعجــام .

ويحدثنا أيضا أن الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري هو الذي أتم العمل القرآني بوضعه رموز الفتحة والضمة والكسرة والشــدة والمــدة والوصل والاشمام والروم وغيرها .

فالعمل القرآني الذي تطور الى عمل لغوي انما كان بصريا ، قام به علماء بصريون ، بدئوا بأبي الأسود الدؤلي ، وختموا بأبي عبدالرحمن الخليل ابن أحمــد الفراهيدي .

مراكز الثقافة في البصرة

كان من أهم مراكز الثقافـة في البصرة مركزان :
أولهمـا : المسجد الجامع :
وثانيهما : المربـد .

وقد تعاون هذان المركزان على نشر الثقافة والدعوة لها ، وفي المركزين تلاقت الأفكار وتفاعلت الحضارات ، وصيغت العقلية البصرية بصيغة مركبة ، ليست بالعربية الخالصة ، ولا بالأجنبية الخالصة ، ولكنها كانت مزيجا من هذهوتلك، الا أن الطابع العربي هو الغالب لأن العربية لغة القرآنولغةالدولة.

المسجد الجامع :

المسـجد واسطة المصر ، لأنه يتوسط المصر ، ولأنه أول ما يبنى فيه ، حوله تخطط الأحياء والسكك ، والمسجد الجامع هو المكان الذي يجتمع الناس فيه للعبادة والصلاة الجامعة ، والاجتماعات العامة التي يدعـو اليها الخليفة أو عماله في الأمصار ، لاعلان الجهاد والنفير العام ، ثم تطورت الحال في المساجد الجامعة ، فحالت الى منتديات للعلماء والفقهاء والمحدثين والمقرئين والقصاص ، تنعقد فيها مجالس الدرس وحلقات القراءة والوعظ واللغة والنحو والفقـه والكلام .

ومن أشهر المجالس التي شهدها مسجد البصرة الجامع :

١ ـ مجلس الحسن البصري . والحسن البصري أحد التابعين ، ومن الفقهاء والمحدثين ، ومن الفصحاء ، كان أبو عمرو بن العلاء يفضل الحسن البصري في الفصاحة على الحجاج وكان يقول : « ما رأيت أفصح من الحسن البصري ومن الحجاج بن يوسف الثقفي ، فقيل له : فأيهما أفصح ؟ قال : الحسـن » [١٣] .

وكان للحسن البصري مجلس يعظ فيه ، ويقصّ ، وكان يجلس الى مجلسه ناس كثيرون ، يختلفون في نزعاتهم وأهوائهم ، وكان الجاحظ يعدّه من الخطباء ،ويقول : « أخطب الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ، إذا شاء خطب ، واذا شاء سكت » [١٤] .

(١٣) اليافعي ـ مرآة الجنان ١/٢٣٠ .
(١٤) البيان والتبيين ١/٣٧٤ .

وكان واصل بن عطاء يجلس الى مجلسه، ووافق أن طرح في مجلسه يوما مسألة مرتكب الكبائر ، فاختلف المجتمعون حوله ، فقالت الخوارج : مرتكبها كافر ، وقال الآخرون : مرتكبها مؤمن وإن فسق بالكبائر ، وخرج واصل بن عطاء عليهم برأي ثالث ، وقال : الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، منزله بين منزلتين ، فثار بين الدارسين في هذه المسألة جدل عنيف ، فطرده الحسن عن مجلسه ، فاتخذ واصل له مجلسا جلس إليه ناس منهم : عمرو بن عبيد ، فقيل لهم : المعتزلة (١٥) .

٢ ــ ومجلس واصل بن عطاء (٨٠ ــ ١٣١ هـ) ، فقد اتخذ واصل ابن عطاء له مجلسا على حدة ، واجتمع إليه ناس أخذوا يختلفون الى مجلسه، وكان منهم عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٢ هـ الذي كان قد صحب الحسن أيضا ، ثم اعتزل مجلسه ، ولازم مجلس واصل بن عطاء ، وكان عمرو بن عبيد معروفا بالزهد والعبادة والاعتزال .

واكبر الظن أن واصل بن عطاء كان بعد اعتزاله مجلس الحسن يثير تلك المسألة التي أثيرت في مجلس الحسن ، ويثير مسائل أخرى تتصل بها ، وأخذ الجدل في هذه المسائل يقوى ويشتدّ ، ويتجه اتجاها عقليا وكلاميّا ، وأخذ الاعتزال يظهر على هيئة فرقة ، واتسعت دائرته ، وكثر أتباعه ، وكان هذا الجدل يعتمد على جميع الوسائل العقلية والنقلية في الدفاع عن العقيدة والمذهب .

وظهر من ذلك علم الكلام ، وسمي أصحابه بالمتكلمين أو النظّارين ، وكان النظّارون من أفصح الناس وأخطبهم ، وأقدرهم على الجــدل ، وكان تحرّي الفصاحة ، وقوة العبارة ، وبلاغة الكلام من سمات المتكلمين والنظارين .

وكان واصــل بن عطاء معدودا في رؤســاء البلغاء والخطباء ، وكان من فصاحته وسعة علمه باللغة يتجنب حرف الراء في كلامه ، لأنه كان يلثغ بها .

وكان لواصل تصانيف في علم الكلام وغيره (١٦) ، ومن مصنفاته : كتاب المنزلة بين المنزلتين ، وكتاب التوحيد (١٧) .

---

(١٥) مرآة الجنان ١/٢٧٤ .
(١٦) مرآة الجنان ١/٢٧٥ .
(١٧) مصطفى عبدالرازق ــ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ٢٨٨ .

٣ ــ ومجلس أيوب بن أبي تميمة السختياني ، وكان أيوب محدثا ، ثقة ، ثبتا ، وكان من أهل البصرة ، وكان له في نفوس معاصريه مكانة عالية ، وكان قائلهم يقول : «كان أيوب عندي أفضل من جالسته ، وأشده اتباعا للسنة » ، وكان الحسن البصريّ ، وهو من هو عقلا ورأيا وفقاهة يقول : « أيوب سيد شباب أهل البصرة » (١٨) .

وكان الخليل بن أحمد أحد من لزمه واستكثر عنه ، وكان يقول : « قدمت من عمان ، ورأيي رأي الصفرية ، فجلست الى أيوب بن أبي تميمة ، فسمعته يقول : اذا أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره . فظننت أنه يعنيني ، فلزمته ونفعني الله به » (١٩) .

٤ ــ مجلس حماد بن سلمة أحد علماء العربية ، وأحد المحدثين ، وكان سيبويه يتلمذ له ، يأخذ عنه الحديث قبل أن يلزم الخليل ، ويأخذ عنه النحو « وكان يستملّ على حماد بن سلمة ، فقال له حماد يوما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماأحد من أصحابي إلا وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه : ليس أبو الدرداء . فقال حماد : لحنت ياسيبويه ، فقال سيبويه: لا جرم لأطلبنّ علما لا تلحنني فيه أبدا ، فطلب النحو ، ولزم الخليل »(٢٠).

وفي المسجد الجامع في البصرة حلقات أخرى هي حلقات الوعظ والقصص، وكانت هذه الحلقات تنعقد فيقص القصاص على الناس أخبار الأنبياء ، وسيرة الرسول الكريم (ص) وأخبار الخلفاء ، ويجعلون للقرآن والأحاديث في في قصصهم نصيبا فيفسرون ، ويحدثون ، وكان من أشهر القصاص الذين عرفهم الدارسون في مسجد البصرة :

١ ــ الفضل بن عيسى الرقاشيّ . كان الفضل متكلما ، وكان قاصا مجيدا ، وكان يقول في قصصه : « سل الأرض فقل : من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فأن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا » (٢١) ، وكان يجلس اليه عمرو بن عبيد ، وكثير من الفقهاء (٢٢) .

---

(١٨) العسقلاني ــ تهذيب التهذيب ٣٩٨/١ .
(١٩) المرزباني ــ نور القبس ٥٦ .
(٢٠) نور القبس ٩٥ .
(٢١) البيان والتبيين ٢٩٦/١ ، ٢٩٧ .
(٢٢) البيان والتبيين ٢٩٥/١ .

٢ ــ وأبو عليّ الأسواريّ ، عمرو بن قائد الذي قصّ في المسجد ستا وثلاثين سنة ، وكان يقص في فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك ، لأنه كان ذا علم بالقرآن والحديث والسير ، وكان يونس بن حبيب « يسمع منه كلام العرب ، ويحتجّ به »[٢٣] .

٣ ــ وموسى بن سيار الأسواري الذي قال فيه الجاحظ : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، كان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه الى الفرس ، فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدرى بأيّ اللسانين هو أبين »[٢٤] .

وفي مسجد البصرة أيضا كانت مجالس القراءة واللغة والنحو تنعقد ، ويختلف إليها الدارسون ، ويزدحم فيها طلبة العلم ، وكان لأبي عمرو بن العلاء مجلس حافل بالطلاب ، مر الحسن البصري به وحلقته متوافرة ، والناس عكوف عليه فقال : « لا إله الا الله ، لقد كاد العلماء أن يكونوا أربابا . كل عزّ لم يوطّد بعلم فإلى ذل يئول »[٢٥] .

وكان أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، ومن أعلم الناس بالقرآن مع صدق وثقة وأمانة ودين ، وقد جلس الخليل بن أحمد إلى مجلسه يوم هبط البصرة ، وكان يعتزم مناظرته في مسألة من مسائل اللغة أو النحو ، ولكنه ظل يستمع إليه ، وهو ساكت ، فسأله بعض أصحابه وكان معه ، عن سكوته ، وعدوله عن مناظرته ، فقال : « هو رئيس منذ خمسين سنة ، فخفت أن ينقطع ، فيفتضح في البلد »[٢٦] .

ثم شهد مسجد البصرة الجامع حلقة كان الدارسون يزحم بعضهم بعضا في اتخاذ مجالس لهم فيها ، وكان الخليل بن أحمد يتصدرها ، ويملي على الدارسين فيها ، وكانت حلقة انكمشت من حولها الحلقات ، وكانت تضم

---

(٢٣) البيان والتبيين ١/٣٤٧ .
(٢٤) البيان والتبيين ١/٣٤٦ .
(٢٥) ابن الجوزي ــ النشر فى القراءات العشر ١/١٣٣ .
(٢٦) مرآة الجنان ١/٣٦٧ .

إليها نخبة من أعلام اللغة والنحو والأدب صار لها بعد الخليل شأن كبير ، كان منهم سيبويه والنضر بن شميل وعلي بن حمزة الكسائي ، وأبو محمد اليزيدي ، والأصمعي وغيرهم ، ولم يتحدث التاريخ في حياة الخليل عن مجلس درس غير مجلس الخليل ، ولا انقطع عن مجلس إلى مجلس آخر جلساء الخليل وأصحابه ، ولم تدب الحياة إلى تلك المجالس إلا بعد أن مات الخليل ، وكان يونس بن حبيب الذي قيل إن سيبويه كان يأخذ عنه قبل اتصاله بالخليل لم يتصدر مجلس درس إلا بعد وفاة الخليل .

ولم تقتصر مجالس اللغة والنحو في مسجد البصرة على النحويين واللغويين وحدهم ، ولكنها كانت تنتظم الدارسين على اختلاف موضوعاتهم من شعر وأدب وقراءة ، غير أن اللغة وروايتها ، والنحو وتقعيده ، والقراءة وتخريجها كانت الأساس الذي أقام الدارسون عليه نشاطهم العقلي ، ومنطلقهم إلى ميادين أخرى ، ميادين الشعر والأدب والنقد ، فكانوا يتذاكرون الشعراء ، ويختلفون في تقديم بعضهم على بعض ، ثم أخذ اللغويون والنحويون منذ عهد مبكر يبسطون نفوذهم على الشعراء ، ويفرضون أحكامهم على الشعر ، وكان الشعراء يأبون الاذعان لأحكامهم أول الأمر ، كما حدث بين عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي والفرزدق بعد أن لحنه في بعض أبياته في حكاية حكاها ابن سلام وغيره .

ولكن الشعراء أذعنوا أخيرا لأحكامهم ونقداتهم ، وأخذ الشعراء يختلفون إلى مجالسهم ، ويستمعون الى نقداتهم ، وربما عرضوا أشعارهم عليهم قبل إنشادها استكفافا لما تجره عليهم مخالفتهم .

زعم الأصفهاني أنه « دار بين الخليل بن أحمد وبين ابن مناذر كلام ، فقال له الخليل : إنما أنتم معشر الشعراء ، تبع لي ، وأنا سكان السفينة ، إن قرظتكم ، ورضيت قولكم نفقتم ، والا كسدتم ، فقال ابن مناذر : « والله لأقولن في الخليفة قصيدة أمتدحه بها ولا أحتاج اليك فيها عنده ، ولا الى غيرك » (٢٧) .

---

(٢٧) الأغاني ١٨/١٨٤ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

وصادف أن كان الرشيد قدم الى البصرة حاجّا ، فتحمّل عليه ابن مناذر ببعض من يوصله الى الرشيد ... ووصل اليه فأنشده قصيدة كان قد ختمها يفتخر فيها بقوله :

قومي تميم عند السماك لهم   مجد وعزّ فما يُنالونا

فقال بعض من حضر : «ياجاهل !! أتفخر في قصيدة مدحت بها أمير المؤمنين ؟!» وقال آخر : « هذه حماقة بصرية » [٢٨] . ولعل الخليل كان بقوله ذاك ، قد قصد الى مثل هذا ، فلو كان قرأها على الخليل لنبّهه الى موضع الضعف، في القصيدة ، وادّرى بتوجيهه مارُمِيَ به .

وعن مجالس اللغة والنحو صدرت الأقوال النقدية الأولى ، وفي هذه المجالس كان النحاة يتذاكرون الشعراء ، ويدلون بآرائهم في أشعارهم ، ويختلفون في تفضيل بعضهم على بعض .

كان أبو عمرو بن العلاء يشبه جريرا بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة [٢٩] .

وسمع ابن سلاّم يونس بن حبيب يقول : « ماشهدت مشهدا قط قد ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع أهل المجلس على أحدهما » [٣٠] ، وكان يونس بن حبيب فرزدقيا ولكنه يقدمه بغير افراط .

وكان للخليل آراء نقدية تتعلق بالأوزان والقوافي ، ومن ذلك أخذه على الشاعر قوله :

إذا كنت في حاجة مرسلا   فأرسل حكيما ولا توصه
وإن باب أمر عليك التوى   فشاور لبيبا ولا تعصِه

وكان يرى أن مثل هذا خطأ في بناء القوافي [٣١] لأن القافية عند الخليل هي من آخر البيت الى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن ، فالقافية

---

(٢٨) المصدر نفسه .
(٢٩) الأغاني ٨/٥ دار الكتب .
(٣٠) طبقات الشعراء ١٢٠ .
(٣١) الحاجري – تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٥٢ .

في البيت الأول هي : (توصه) وفي الثاني هي (تعصه)، وهما مختلفان لأن الأولى مردوفة ، والثانية غير مردوفة ، وهذا ما يسمى عند الخليل بسناد الردف ، وهو من عيوب القافية .

المربد :

ومربد البصرة من أشهر محالّ البصرة ، وكان قديما سوقا تسمى سوق الإبل ، وكان متصلا بالمصر غير مفصول عنه ، لأنه من محالّه ، ولكنه شوهد في أوائل القرن السابع ، وهو « بائن عن البصرة نحو ثلاثة أميال ، وكان بين ذلك كله عامرا ، وهو الآن خراب فصار المربد كالبلدة المفردة في وسط البرية » (٣٢) . ولابد أن خرابه كان قبل ذلك بكثير منذ أن أخذت البصرة تفقد أهميتها شيئا فشيئا .

وكان للعرب أسواق كثيرة ، وكانت « عكاظ »أشهر تلك الأسواق ، وكانت أول أمرها سوقا لتبادل السلع ، ثم صارت مقصد القبائل تجتمع بعكاظ كل عام ، ومعها خطباؤها وشعراؤها، فيتفاخر خطباؤها ، ويتناشد شعراؤها، فإذا انتهى الموسم تفرقت القبائل ، وعادت الى مواطنها . وكانت عكاظ موعد الشعراء ، يلتقون فيها كل عام ، وكان للنابغة الذبياني فيها مكان خاص تضرب له فيه قبّة ، فتأتيه الشعراء ، وتعرض عليه أشعارها ، وكان الشعراء يحتكمون عنده ، وكان النابغة يرسل أحكامه فتذيع . وفي عكاظ قال قسّ ابن ساعدة الأيادي خطبته المعروفة ، وفيها علّقت القصائد السبع التي عرفت بالمعلقات (٣٣) .

كذلك كان المربد بعد تمصير البصرة مثابة للخطباء والشعراء ، تخطب فيه الخطب ، وينشد فيه الشعر ، وكان شعراء البادية وشعراء الحاضرة يختلفون إليه في المواسم ، ويتناشدون فيه الأشعار ، ويتفاخرون بمآثرهم وأحسابهم وأنسابهم ، ولم تزل العصبيات القبايّة تقد في نفوس الشعراء شاعريتهم لتنفث قصائد لاهبة ، كما حدث لشعراء النقائض؛ جرير والفرزدق والأخطل،وغيرهم.

ولم يكن مقام هؤلاء الشعراء في الحواضر ، فقد كانوا أعرابا ، كان

---

(٣٢) الالوسي ــ بلوغ الأرب ٢٦٧/١ .
(٣٣) الأغاني ٢٩/٨ دار الكتب .

الفرزدق يقيم فيبادية البصرة، وجريرفيبادية اليمامة ، والأخطل في بادية بني تغلب • وكان الشعراء الآخرون الذين عرفوا في بيئة العراق في القرن الأول وأوائل القرن الثاني ، كذي الرمة والقطامي أعرابا أيضا ، وكانت أعرابيتهم وجفاؤهم تجعلهم يفضلون المقام في البادية ، ولا يعدلون بها مقاما ، وكانوا يختلفون الى المربد ، لأن المربد بيئة وسط بين البادية والحاضرة ، لأنها أنشئت لتكون سوقا يلتقى فيها البدو والحضر ، ثم تطور أمره ، فصار منتدى يجتمع فيه الدارسون لتبادل الأخبار والأشعار والسير ، وانتقل مجد عكاظ إليه ، فصار ملتقى الشعراء والنقاد واللغويين والنحويين •

يلتقى فيه الشعراء ليتناشدوا أشعارهم ، ويتغنوا بمآثر قبائلهم •

ويلتقى فيه النقاد ليبنوا أساس النقد في العراق ، كما بني فى الحجاز من قبل بالنابغة والخنساء وغيرهما •

ويلتقي فيه الرواة ليتلقطوا الغريب والنادر وفصيح الكلام •

ويلتقي فيه النحويون واللغويون ليشافهوا الأعراب الذين مازالوا يحتفظون بسلامة سلائقهم ، وبفصاحتهم التي لم تشبها شائبة من الحضر ، وليستمعوا الى محادثاتهم ، ويلاحظوا أساليبهم في التعبير ، ليضعوا أصولهم في الدرس النحويّ واللغويّ •

وكما كان النابغة يقضي بين الشعراء في (عكاظ) عرف الراعي في المربد يقضي بين الشعراء ، ويحكّم فيهم « وكان راعي الابل وهو أبو جندب عبيد بن حصين ، أحد الشعراء الفحول فى الاسلام يقضى للفرزدق على جرير ويفضّله » (٣٤) • وكان هذا يغيظ جريرا وكان جرير يقول لرجال من قومه : « هلاّ تعجبون لهذا الرجل يقضي للفرزدق عليّ وهو يهجو قومه ، وأنا أمدحهم » (٣٥) ، وكان جرير يعاتبه في ذلك ، وجرى له بعد ذلك مع الراعي قصة ختمها بقصيدة هجاه فيها ، جاء فيها :

فغضّ الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا (٣٦)

---

(٣٤) الأغاني ٨/٢٩ دار الكتب .

(٣٥) النقائض ١/٤٣٠ ليدن .. الأغاني ٨/٢٩ — ٣١ دار الكتب

(٣٦) الأغاني ٨/٢٩ دار الكتب .

وكان للراعي والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد يجلسون فيها (٣٧).

والدارسون في البصرة كانوا لايدعون فرصة تفوتهم في مواسم المربد، فكانوا يذهبون إليه للقاء الأعراب الوافدين، فيسمعون منهم، ويتلقون عنهم، وينقلون أخبار البوادي وأشعار البدو، وما يتصل بهذا من أحاديث العشاق، وحكايات اللصوص ومواقف الفرسان، ويرجعون وفي عيابهم كل ما كان يطمح إليه تلاميذهم، والآخذون عنهم، أو يعرضون ذلك كله في مجالس الأمراء والخلفاء، ومن هؤلاء جماعات كان الناس يسمونهم بالمربديين، لشدة تعلقهم بالمربد، وطول اختلافهم إليه.

وقد أدرك الجاحظ رواة المربديين، فلاحظ أنهم لا يعدّون من الرواة «من لم يرو أشعار المجانين، ولصوص الأعراب، ونسيب الأعراب، والأرجاز الأعرابية القصار، وأشعار اليهود»، وقد شهدهم الجاحظ «وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الاحنف فما هو إلاّ أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب، فصار زهدهم في نسيب العباس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب» (٣٨).

وكان كثير من الكتاب يذهبون الى المربد في المواسم الحافلة بالأعراب والشعراء والخطباء، ليسمعوا منهم، ويشافهوهم، ويأخذوا اللغة عنهم، ويتلقفوا الفصاحة عنهم، وكان ابن المقفع واحدا من هؤلاء، فقد كان يختلف الى المربد لطلب اللغة، واكتساب الفصاحة بمشافهة الأعراب، والاستماع إليهم.

يروي القحذميّ عن شبيب بن شيبة، قال: «كنا وقوفا بالمربد، وكان المربد مألف الأشراف إذ أقبل ابن المقفع فبششنا به، وبدأناه بالسلام، فردعلينا السلام ثم قال: لو ملتم الى دار نيروز (موضع في البصرة) وظلها الظليل، وسورها

(٣٧) البيان والتبيين ٣/٣٢٣.
(٣٨) العقد الفريد ٣/٢٢٤.

المديد ، ونسيمها العجيب ، فعوّدتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابّكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لن تُفاتوه ،ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلنا ، وملنا » [٣٩] .

وكان الجاحظ أحد هؤلاء الذين كانوا يختلفون الى المربد أيضا ؛ فقد أكثر من لقيّ الأعراب فيه ، ومشافهتهم ، والأخذ عنهم ، وتلقف الفصاحة عنهم [٤٠] .

ولا ريب أن المربد كان له في ابن المقفّع والجاحظ تأثير كبير ، في فصاحتهما ، وجزالة أسلوبهما ، ونقاوة عباراتهما ، فهما مدينان له في ذلك كلّه.

---

(٣٩) معجم الأدباء ١٦/٧٥ .

الخليل بن أحمد الفراهيدي

كان صبية الحيّ يلعبون ، فمرّ بهم الفرزدق يوما وهو على بغل ، وكان قبيح الوجه ، فجعل الصبية ينظرون اليه ، ويطيلون النظر في وجهه ، فغاظه ذلك ، وأراد أن يخيفهم ، فأنشد قوله :

نظروا إليك بأعين محمرة — نظر التيوس إلى مدى القصاب

ولعله كان يضغط في إنشاده على قوله : (مدى القصاب) ليخيفهم ، فينفضّوا من حوله ، فقال له بعضهم : نظرنا إليك أنك مليح ، كما يُنْظَر الى القرد وهو مليح ، فسكت الفرزدق ولم يجب بشيء ، وصرف وجه بغلته ، ومضى (١) .

ولم يردّ الفرزدق عليه ، ولعله لم يرد أن يطيل الكلام مع هؤلاء الصبية أخذا وردّا ، لئلا يتلقى منهم ردّا أقوى ، أو لعله أراد أن يطوي هذه الحادثة فلا يدعها تتجاوز ملعب الصبية الى حيث يتربص به جرير وغيره ممن كان يخشى ألسنتهم الحداد ، فتحول الى قصيدة هجاء تنشد على جموع المربد ، ثم تسير بها الركبان .

كان هذا الصبيّ الذي افحم الفرزدق وأسكته هو الخليل بن أحمد ، الذي ألهمه ذكاؤه أن يردّ على بيت الفرزدق الذي لم يستطع الفرزدق أن يردّ عليه ، وكان الخليل إذ ذاك ابن عشر سنوات أو حول ذلك .

كانت هذه الحادثة العابرة هي القبس الوحيد الذي آنسه الدارسون من حياة الخليل الأولى ، ثم ألقت الأحداث التي كانت دائرة بين السلطان والخارجين عليه ستارا كثيفا على نشأة الخليل ، وتدرّجه في صباه وشبابه ، وتقلبه في مدارج التعلّم ، فلا يكاد الدارس يعرف عنه شيئا ذا بال إلاّ بعد أن صار الخليل عنوان البصرة ومفخرتها ومضرب أمثالها في الذكاءوا لعلم والورع والزهد .

---

(١) نور القبس ٦٩ .

سمع وهب بن جرير يقول : « قلّ من كان بظاهرة البصرة من العلماء والزهاد إلاّ كان في باطنتها مثله يضعه أهل البصرة حياله ، فكان عبدالله بن عون فى الباطنة ، وكان يُعَدُّ الخليل بن أحمد فى الظاهرة مثله »[٢] .

وعبدالله بن عون هذا هو شيخ البصرة وعالمها وإمامها ، وكان قد توفي سنة ١٥١ للهجرة .

وكان النضر بن شميل تلميذ الخليل وصاحبه يقول : « كنا نمثّل بين ابن عون والخليل بن أحمد ، أيهّما تقدّم في الزهد والعبادة ، فلا ندري أيهما تقدم »[٣] ، وكان يقول : « مارأيت رجلا أعلم بالسنة بعد ابن عون من الخليل ابن أحمد »[٤] .

وحدث أبو محمد التَّوَجي قال : « اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق ، فتذاكرنا أمر العلماء ، فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويصفونهم ويقدمونهم ، حتى جرى ذكر الخليل ، فلم يبق أحد إلاّ قال : الخليل أذكىٰ العرب ، وهو مفتاح العلوم ومصرّفها »[٥] .

وكان سفيان بن عُيَيْنَة المحدّث يقول : « من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد »[٦] .

وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي واحدا من أولئك الذين كانوا يحفظون فى أنفسهم للخليل تقديرا ، وبه إعجابا ، ولعلمه ومنجزاته إكبارا ، واسحاق هذا هو الذي قال لابراهيم بن المهدي حين استحسن كتابه في اللحون ، « بل أحسن الخليل ، لأنه جعل السبيل الى الاحسان » . وهو الذي هجا الأصمعيّ لأنه كان يتعاظم ويتطاول فيزعم أن الخليل كان يسأله ، فقال :

أليس من العجائب أن قردا	أصيمع باهليا يستطيل
ويزعم أنه قد كان يفتى	أبا عمرو ويسأله الخليل

---

(٢) مراتب النحويين ٢٩ .
(٣) نزهة الألباء ٥٨ .
(٤) نزهة الألباء ٥٩ .
(٥) مراتب النحويين ٢٩ .
(٦) نزهة الألباء ٥٨ .

فجعل من استطالته وتعاظمه أن يجترىء فيزعم أن الخليل كان يسأله ، وضرب بالخليل مثلا للغاية التي لا تدرك ، والأمنية التي لا تنال .

وضرب خالد النجار ، فيما يروى المرزبانيّ ، بالخليل مثلا ، فقال يخاطب التّوّجيّ :

يامـــن يـــزيد تمقتـــــا وتباغضـــا في كـــل لحظـــة
والله لـــــو كنـــت الخليـــل لمـــا روينـــا عنـــك لفظة [٧] .

والخليل عربيّ صليبة ، أزديّ ، من حيّ يقال لهم : الفراهيد ، وكان من أهل عمان ، من قرية من قراها [٨] . وكانت الخارجية رأى قومه ، وقد انتقل مع أهله صغيرا ، وسكن في ظاهرة البصرة ، وشـب وهو خارجيّ ، أباضيّ أو صـُفْريّ الى أن لقي أيوب بن أبي تميمة السختيانيّ فقيه البصرة ومحدثها فتأثر به ، كما تحدث الخليل عن نفسه ، قال : « قدمت من عمان ورأيي رأي الصـُّفْرية ، فجلست إلى أيوب بن أبي تميمة فسمعته يقول : إذا أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره ، فظننت أنه يعنيني ، فلزمته ، ونفعني الله بـــه » [٩] .

وعن أيوب هـــذا أخذ الخليل الحديث والفقه ، وترك رأي قومه الى أستاذه ورأي العامة من المسلمين .

ثم سكت التاريخ ، وطوى صفحات ما يزال بالدارس حاجة الى متابعتها، غير ان منطق الأحداث يوحي للدارس أن انسانا مثل الخليل في رهافة الحسّ وحدة الذكاء لم يكن ليغفل عما يجري من حوله ، ولم يكن ليدع شيئا يفوته ، ولابد أنه جلس الى شيوخ آخرين وأفاد منهم ، مهتديا بقول أستاذه : إذا أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره ، فلابد أن يستقصي ، ولابد أن يوازن ، ولن يعرف الدارس الحقيقة في مجالسات أستاذ بعينه ، فلابد مـــن الوقوف على الاختلاف ، وعلى وجهات النظر المتفاوتة ليتيح لعقله أن يتدبر فيوازن ويحاكم ، ويفحص وينقد ، ليونس الحقيقة التي يهفو إليها من خلال التدبر وإعمال الفكر .

---

(٧) نـــور القبـــس ٥٧ .
(٨) المصـــدر نفســـه .
(٩) نور القبس ٥٦ .

ومن الشيوخ الذين اقترن اسم الخليل بأسمائهم : عيسى بن عمر الثقفي ثالث ثلاثة كانوا نحاة حقيقيين ، وكانوا متعاصرين ، وهم عبدالله بن أبي اسحاق وعيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء ، إلاّ أن أبا عمرو كان مقدما على صاحبيه في القراءة والرواية ، وأن صاحبيه كانا مقدمين عليه في النحو ، وخاصة ابن أبي إسحاق الذي كان ، فيما قالوا ، « أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل »[١٠] .

ولابد أن يكون الخليل قد أفاد منهما جميعا ، وإن لم يذكر ابن أبي إسحاق في عداد شيوخه ، ولم يشر أحد ، ولو من بعيد الى أن الخليل تلمذ لابن أبي إسحاق أو لقيه لأن ابن أبي إسحاق كان قد تردد اسمه في (الكتاب) في أكثر من موضع ، ولا أحسب ذلك إلاّ من رواية الخليل ، ولا يكاد الدارس يقتنع أن الخليل الفطن الفاحص المتتبع يرى ابن أبي إسحاق فلا يأخذ عنه ، ولا يفيد من علمه ، والخليل يوم مات ابن أبي إسحاق كان في السابعة عشرة من عمرة ، ومن كان في سنه كان واعيا ومدركا ، فإذا كان في ذكائه وفطنته وتتبّعه كان أوعى ، وأبعد إدراكا .

ولا ريب أن يكون الخليل قد أضاف كثيرا الى ما أخذه عنهما ، ففاقهما استيعابا ، وتجاوزهما ملاحظة ، وإذا بالخليل يغدو فتى طموحا ، يريد أن يصرخ في مسمع الدهر ليلتفت إليه ، ويتحدث عنه بأحاديث الخلود .

وهبط الخليل البصرة من ظاهرتها يوما وهو عازم على مناظرة أبي عمرو بن العلاء ، وكان أبو عمرو يومئذ يتصدر حلقة توافر فيها الدارسون ، وزحم بعضهم بعضا للاستماع إليه والأخذ عنه ، وكان مع الخليل أحد أصحابه، ولعله النضر بن شميل ، حتى إذا دخلا مسجد البصرة اتجها شطر مجلس أبي عمرو ، واتخذا لهما مكانا فيه ، وأصغى الخليل الى الشيخ وهو يتحدث في موضوعات شتى ، وأصغى معه صاحبه ، ولاح له ولصاحبه مواطن ضعف في كلام الشيخ ، وتوقع صاحبه أن يقاطعه الخليل فيرده الى الصواب ويقطعه، ولكنّ الخليل بقي مطرقا مفكرا ، ومضى الشيخ في كلامه ، والخليل ساكت ، ثم ختم الشيخ درسه ، والخليل ساكت ، وتفرق الناس من حول الشيخ ، ونهض الخليل ونهض صاحبه وهو متميز من الغيظ ، فسأله بحنق المغيظ : « ما حملك

---

(١٠) ابن سلام ــ طبقات الشعراء ١٠ المطبعة المحمودية التجارية .

على السكوت عن مناظرته ؟ قال : نظرت فإذا هو رئيس منذ خمسين سنة ، فخفت أن ينقطع ، فيفتضح في البلد ، فلم أكلمه » (١١)

بتلك الفطنة طلع الخليل علينا صبيا ، وبهذا الخلق الرضيّ طلع علينا فتى ، وكان هذا الخلق السمح طابع الخليل ، وبه عرف ، وفي هداه سلك ، وبه صار في نظر سفيان رجلا خلق من الذهب والمسك .

وكان الخليل زاهدا متواضعا ورعا حقا ، لم يساوره الزهو بما وصل إليه ، ولا أضعفت خلقه تلك المنزلة التي ارتفع بها ، وكان مرموقا من أجلها ، ورضي من العيش بالكفاف ، وبقى ملازما خصته لا يجاوزه همه ، كما كان يقـول (١٢) .

وكان الخليل محبا للعلم طالبا لـه ، مكبرا العلماء ، عادّا إياهم في الأولياء ، وقد حكي عنه أنه قال : « إن لم تكن هذه الطائفة ـ يعني أهل العلم ـ أولياء لله تعالى فليس لله تعالى وليّ » (١٣) .

وكان الخليل طرازا خاصا في الدارسين ، كان لا يكتفي من العلم بالجمع والاستيعاب فعل الحاطب بليل ، فليس العلم استيعابا للمسـموعات ، ولا استظهارا للمحفوظات ، ولكن العلم هـو الحفظ والفحص والنقد والتمثل ، فليستوعبوا من العلم ماشاءوا ، وليجمعوا من المسموعات والمقروءات مـا أرادوا ، فليس ذلك بشيء إلآ أن يطيلوا التدبر فيما يستوعبون ويجمعون ، وكان يقول : « تكثّر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » (١٤) ، وكان يقول: « كن على مدارسة ما في قلبك أحرص منك على حفظ كتبك » (١٥) .

ولعل هذا هو كان ابن المقفع يعنيه حين قال : « رأيت رجلا عقله أكثر من علمـه » ، وكان الخليل يرمي في قوله : « تكثر من العلم لتعرف ، وتقلل منه لتحفظ » ألى أن يرسم لطلاب العلم منهجا للافادة مما يطلبون .

(١١) نور القبس ٦٧ . مرآة الجنان ٣٦٧/١ .
(١٢) شذرات الذهب ٢٧٥/١ .. البداية والنهاية ١٦١/١٠ .
(١٣) نزهة الألباء ٥٨ .
(١٤) البيان والتبيين ٢٥٦/١ .
(١٥) الكامل ١٧١ أوربة .

وكان طول التدبر والتفكّر فيما في نفسه ، وفيما حوله هو الذي وسّع عقله ، وشحذ فطنته ، ، وأرهف حسه وفجّر عبقريته •

وكان التأمل شغله ودأبه ، وكان إذا أخذ بالتأمل نسي نفسه ، وغفل عما يجري حوله ، ولم يكن يقع له الحادث الذي أودى بحياته إلآ لانصرافه عن نفسه ، وعما حوله ، فقد دخل المسجد يوما ، كما قيل — وقد استبد به تفكيره في طريقة حسابية يقرب بها نوعا من الحساب « تمضي به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها ، ودخل المسجد ، وهو يعمل فكره في ذلك ، فصدمته سارية وهو غافل عنها بفكره » (١٦) ، وكان ذلك سنة خمس وسبعين ومئة للهجرة •

ولا شك أنه كان يخضع كل شيء لطول التدبر وإعمال الفكر ، ولابد أنه أفاد بتدبره مما حوله من مظاهر حضارية انعكست على المجتمع البصري الجديد ، وخبر الثقافات ، والأهواء والمذاهب التي كانت تصطرع في هذه البيئة ، فكان على مقربة مما كان يجري في حلقات الدرس من جدال ومناقشة فيما كان يطرح فيها من مسائل تتعلق بالعقيدة وأصول الدين ، كالذي جرى بين واصل بن عطاء والحسن البصري ، وبين الخوارج وعامة المسلمين ، وكان الخليل خارجيا أباضيا أو صفريا ، وكان يتعصب أول الأمر للخارجية ، وينذر نفسه للدفاع عنها ، وكان يحج سنة ، ويغزو سنة (١٧) ، ولكن الخليل لم يكن ليغلق ذهنه دون مذهب غير مذهبه ، أو عقيدة غير عقيدته ، ولا ليسد عقله دون رأي يخالف رأيه ، أو يتعصب لفكرة على فكرة ، ولذلك ماكاد يسمع ابن أبي تميمة السختياني يعظ ويقص على الناس أحاديث تجعل من قتل المؤمن بغير حق أكبر كل الكبائر ، وأعظم جميع الذنوب ، حتى اجتذبه مجلسه ، ومال الى موعظته ، ولزمه ، وانتفع به •

وكانت التجربة منهجه في الحياة ، وسبيله الى الايمان بعلمه وبدينه ، ولا تتأتى الخبرة بتقليد ، ولا الحقيقة بتعصب ، ولا العلم بالاملاء والتلقين ، وليس التكثر من العلم هو ماكان يطلبه ، ويجهد من أجله ، بل هو التدبّر فيما كان يتكثّر منه • وكانت رغبته في الاحاطة بما حوله تدفعه الى تقصي مجالس الدرس المختلفة ، وتحمله على اطراح الحشمة بينه وبين شيوخه ، فلا

---

(١٦) وفيات الأعيان ١٩/٢ •
(١٧) مراتب النحويين ٣١ • بغية الوعاة ٥٥٨/١ •

يمنعه عن ذلك أن يظن به الجاهلون الظنون ، لأنه كان يرى أن الجهل متربع بين الحياء والكبر في العلم ، وكان يقول : « أدركت بعض ما أنا فيه باطّراح الحشمة بيني وبين المعلمين ، والقاء الستر بيني وبين الذين كنت ألتمس ما عندهم ، ومن رقّ وجهه عن طلب العلم رقّ علمه ، ووجدت الرقة في التماس العلم سفها يدعو الى سفاه ، وكلّ يدعو الى ضلال » [١٨] ، وكان يتأثر أستاذه أيوب بن أبي تميمة السختيانيّ الذي كان يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف » [١٩] ، ويتخذ منه أسلوبا ومنهجا ، لأن « من استغنى بما عنده جهل ، ومن ضم الى علمه علم غيره كان من الموصوفين بنعت الرّبّانيّين» [٢٠] ، ولأنّ « مَنْ أظهر حياء في التماس العلم ، وقعدعنه لبس الجهل ، وتقنّع قناع السفه ،ومَنْ امتدت له أيامه في غلواء جهله حشر يوم القيامة أعمى » [٢١] .

---

(١٨) طبقات النحويين واللغويين ٤٤ .
(١٩) البيان والتبيين ٢/٩٥ .
(٢٠) طبقات النحويين واللغويين ٤٤ .
(٢١) المصدر نفسه .

مصــادر علم الخليل

ولد الخليل سنة ١٠٠ للهجرة ، وكانت البصرة إذ ذاك تستقبل عهــدا جديدا، وتدون تاريخا مشرقا ، وتفتح صدرها الرحب للوافدين إليها مــن الآفاق ، تجارا وطلاب علم ، وتكتب ديوانا جديدا للعرب بتدفق الحياة في مربدها ، وتشق طريقها الى المجــد في العلم واللغة والعمارة ،والتجارة ، وقد ازدهرت الحياة العقلية فيها ازدهارا عزّ نظيره ، وندر مثاله ، فقد التقت فيها الحضارات ، وتفاعلت فيها الأفكار .

وشبّ الخليل فشبّ معه ذهن ذكيّ ، وفطنة نادرة ، وعقل مستوعب فاحص ، فاستخدم كلّ هذه الأدوات كأحسن ما يكون الاستخدام ، فتفجّر عقله نبوغا وعبقرية ، وتدفقت نفسه زهدا وورعا ، وخلقا سمحا ، وتواضعا جمّـــا .

كان الخليل قد فتح عينيه على مجالس الدرس في مسجد البصرة حافلة بالدارسين ، وكان ينتقل بين هذه المجالس ، ويختلف الى الشيوخ ، يتكثّر من العلم ليعرف ، ويتقلّل منه ليحفظ ، فاذا خرج من المسجد عرّج على المربد ليسمع الأعراب ، ويشافه الفصحاء ، ويأخذ مكانه بين المتحلّقين حول الشعراء والخطباء يتناشدون ويتفاخرون .

والبصرة ، كما نعلم ، متصلة بالبادية ، محاذية لها ، وكانت مضــارب تميــم تمتــد من البصرة حتى مشارف الكوفة ، وكان الأعراب من بني تميم، ومن باطن البادية يتوافدون على البصرة للجلب والميرة ، وتبادل السلع ، وكان أهل البصرة يختلفون الى المربد للتبادل مع هؤلاء الأعراب ، وفيهم فئات من الدارسين جاءوا الى المربد لتحصيل اللغة والشعر والأخبار ، يتلقطون ذلك من الأعراب وكانوا يدونون ما كانوا يسمعون في ألواح ، وكان منهم من لم يدع فرصة إلاّ اهتبلها في المواسم التي يقبل فيها الأعراب ، وهؤلاء هم المربديون الذين أشار إليهم الجــاحظ .

وأكثر أعلام اللغة والنحو كانوا قد اختلفوا إلى المربد ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وأبو الخطاب الأخفشــ والأصمعيّ ، وأبو عبيدة ، وأبو زيد

الأنصاري ، والنضر بن شميل ، وغيرهم . وكان أبو زيد خاصة يلح في مسألة الأعراب ليستنفد ما عندهم وهو كثير الرواية عنهم ، كثير النقل ، وكان يلازم بعض الأعراب من عقيل وقشير ، ويتعلّم عندهم [1] .

وعن هؤلاء الأعراب الـذين نزلوا البصرة وأقامـوا فيها كان العلماء واللغويون والرواة يأخذون القصيد والأرجاز ويتلقفون الفصاحة واللغات والغريب .

وكان من الأعراب الفصحاء من أحسّ بحاجة أهل البصرة إليهم ، فكانوا يفدون إلى البصرة لا للجلب والميرة ، ولا لتبادل السـلع ، ولكن لعرض ما عندهم من غريب ونادر كلام وشعر ورجز ، ثم يقيمون في المربد وحوله .

ومن هؤلاء : المنتجع الطائيّ ، وأبو مهدية الأعرابي ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، وأبو خيرة ، وأبو الدقيش، وكان الخليل بن أحمـد يأخذ عن هؤلاء ، ويختلف إليهم [2] ، وأبو الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي الذي كان يفد على آل سليمان بن علي وكان ابن المقفع يلازمه ، ويأخذ عنه الفصاحة[3] .

وقد عرض ابن النديم لهؤلاء وغيرهم في الفصل الذي عقده لذكر أسماء فصحاء العرب المشهورين ، الذين سمع منهم العلماء وشـيء من أخبارهم وانسـابهم [4] .

هؤلاء هم علماء البادية الذين أخذ عنهم علماء البصرة والكوفة . منهم رواة أخبار ، ومنهم رواة شعر ، ومنهم نسابون ، ومنهم فصحاء أخذت عنهم الفصاحة ، وكان علماء المصرين يحتجّون بكلامهم ، ويستكثرون عنهم ، ويحتكمون لديهم فيما اختلفوا فيه .

فالمربد إذن بمواسمه ، وبفرص اللقاء فيه بين الأعراب الوافدين وأهل البصرة كان مدرسة تخرج فيها كثير من الدارسين ، وكان مركزا ثقافيا مهما قام عليه ، وعلى غيره من المراكز الثقافيـة مجـد البصرة في العلم والأدب واللغـة .

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٨٢ .
(٢) مراتب النحويين ٤٠ .
(٣) فهرست ابن النديم ٦٧ م الرحمانية ــ مصر .
(٤) فهرست ابن النديم ٦٥ .

وإذا عرفنا أن الخليل كان يحج سنة ويغزو سنة فإن سنة الحج كانت تتيح للخليل فرصا كبيرة للقاء الأعراب في البوادي ومشافهتهم والإصغاء إليهم ، والاحاطة بما يستسيغون وما لا يستسيغون من تراكيب لغوية وأبنية ومفردات ولهجات، وربما أبعد في ملاحظاته فشملت أساليبهم في التعبير ، وطرائقهم في الاداء وإخراج الحروف ، وما يطرأ عليها من تغيير حين تتألف الحروف في كلمات ، ومالها من خصائص كالنصاعة والقوة والخفاء والطلاقة والذلاقة •

ولا ريب أن لمشافهته الأعراب في هذه البوادي تأثيرا خاصا في الخليل وتخصصه في المباحث اللغوية والنحوية ، وإدراكه أسرار البناء والتأليف ، وكشفه كثيرا من الغوامض ، وتفسيره كثيرا من الظواهر •

وإذ قال له الكسائيّ يوما ، وكان يلازم مجلسه ويأخذ عنه : « من أين علمك هذا ؟ » قال له الخليل : « من بوادي الحجاز ونجد وتهامة » • فخرج الكسائي إلى هذه البوادي ، ومكث فيها مدة طويلة ، كان فيها يسمع ويشافه ويدوّن ، حتى أنفد كما قيل ، في التدوين خمس عشرة قنينة من الحبر، غير ما كان حفظ •

فالخليل ، مع ما وهب من عقل مستوعب ، وذهن ناقد ، كان قد رفدته بيئة البصرة بكل مالديها ، وتعهدته تلك البوادي بكل ما فيها ، فالتقت في ذهنه كل تلك الثقافات ، وحفظها ، وتمثّلها ، وأعاد صوغها ، وأحكم بناءها وتبويبها وتصنيفها ، وأضاف إليها تجاربه ، وأمدّها بإبداعه ، ثم أملاها على الدارسين، فاذا هي عطاء إنسانيّ ضخم ، طفر بالعقل من طور السذاجة والفجاجة الى طور النضج والاكتمال ، وإذا بالدرس اللغويّ غير الدرس اللغويّ ،وبالنحو، غيرُ النحو ، وإذا بالدارسين ينثالون على مجلسه من كل جانب ومن كلّ أفق ، ليعبوا من نحو الخليل في (الكتاب) ، ولغة الخليل في كتاب العين ، واختراع الخليل في العروض •

---

(٥) نزهة الألباء ٨٣ .

حققت البصرة أعمالا لغوية مهمة ، وكانت في هذا مدينة للمربد ، فقد كان المربد مثابة للفصحاء من الأعراب ، ومقصدا للدارسين البصريين، يسمعون من الأعراب اللغات والغريب والنادر ، ويدونون ذلك في ألواح يحملـونها معهم ، ويعودون وفي عيابهم مادة ضخمة للدارسين وطلاب العلم •

وتنبّه الدارسون ، باختلافهم الى المربد ومشـافهة الأعراب الوافدين للمنبع الثر الذي يمكن أن يسترفدوه ، فيرفدهم بأضعاف مايرفدهم به المربد ، وهو البوادي النائية ، ولا سـيما بوادي نجـد والحجاز وتهامة ، فكانوا يشدون الرحال إليها ، ويقضون فيها أعواما ، يسمعون ويشافهون ويدوّنون •

وكان الخليل بن أحمد كثير الاختلاف الى تلك البوادي ، فقـد كان يحجّ سنة ويغزو سنة ، ولا شك أنه كان قد أفاد من سنوات الحج كثيرا ، ووقف ، بقوة ملاحظته ونفاذ ذهنه ، على مالم يتيسر لغيره •

وظهر في بيئة البصرة لغويون ، كانوا أعلام الدرس اللغويّ ، ومرجع الدارسين ، وفي مقدمة هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء ، والأصمعي ، وأبو عبيدة، وأبو زيد الأنصاريّ ، والنضر بن شميل ، وقد صنف هؤلاء رسائل ، وكتبا صنفوا فيها ما تجمع لديهم من مفردات ، وما جمعوه من لغات ، ودونوها ، ولم يتجاوز عملهم اللغويّ حدود التدوين ، وضبط المفردات ، كما جاءت على ألسنة الأعراب ثم تصنيفها بحسب الموضوعات ككتاب النخل ، وكتاب النبات ، وكتاب المطر ، وغيرها ، أو بحسب الحروف ، كأن يتخذ أحد الحروف أساسا للتصنيف ، فينتظم الكتاب المفردات التي تشترك في هـذا الحرف ، ككتاب الجيم ، وكتاب الهمز وغيرهما ، أو بحسب المعاني، أو غير ذلك، وكان الهدف من تدوينها هو حفظ اللغة من الضياع، وصيانتها من التصحيف والتحريف والخطـأ •

أمّا الخليل فكان ينظر الى هذه المفردات على أنها تمثل مرحلة متأخرة من مراحل البناء اللغويّ ، فإذا لم يبدأ بالدرس اللغوي من الأسـاس فلا جدوى منه ، لأن الدرس يظل عاجزا عن الخطوات التي سبقت هذه المرحلة ،

والعوامل اللغوية التي شاركت في إتمام عملية البناء • واذا كانت اللغة تتألف من مجموع هذه المفردات فان المفردات انما تتألف من أجزاء ، وهذه الأجزاء هي الحروف ، فلابد إذن لمن يريد أن يدرس اللغة ، ويتفهم طبيعتها ، أن يبدأ بدراسة الحروف ، لأن المفردات كلها إنما تتألف من حروف ، وهذه الحروف هي حروف الهجاء المعروفة •

يدل على مثول هذه الفكرة في ذهن الخليل ما حكاه الليث بن المظفر عنه•قال الليث : « كنت أسير الى الخليل ، فقال لي يوما لو أن إنسانا قصد وألّف حروف ألف وباء وتاء وثاء على ما أمثّله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب ، فتهيأ له أصل لا يخرج عنه شيء منه البتة • قال : فقلت له : وكيف يكون ذلك ؟ قال : يؤلفه على الثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ الخ ••» (١) •

فقوله : (لو أن إنسانا قصد وألف حروف ألف أو باء أو تاء أو ثاء الخ ••) يدل دلالة واضحة على تمثل الخليل فكرة تأليف الأبنية ، أعني أبنية الكلمات ، فهي إذن تتألف من الحروف والحروف هي مادة اللغة ، والحروف في العربية تسعة وعشرون حرفا ، فلابد للدارس إذن أن يعرف طبيعة هذه الحروف ، وخصائصها ، وما يقوم عليه بناء الكلمة ، وما لا دخل له في البناء ، ولابد أن يكون الخليل قد أطال النظر في ذلك ، وتدبّر أمر هذه الحروف ، فلم يمكّنه ترتيب الحروف من ذلك ، ، لذلك « قلب الخليل (أ ب ت ث)فوضعها على قدر مخرجها من الحلق » •

والسبب الذي حمله على تغيير ترتيبها ، وعلى وضعها على قدر مخرجها من الحلق هو أن الترتيب الموروث لم ينبن على أساس علمي ، فهو حين أراد أن يضعها على قدر مخرجها إنما كان يرمي إلى اعادة تنظيمها ولكن على أساس علمي واضح •

وهكذا كان قد تأتّى للخليل ، بما أتيح لعقله من أسباب التنظيم ، أفكار عن طبيعة اللغة ، ونشوئها ، وعن طبيعة الأصوات (الحروف) التي تتألف مفرداتها منها، وقد استخدم كل ماكان لعقله المنظم من إمكانات لدراسة اللغة وفهم طبيعتها •

---

(١) فهرست ابن النديم ٦٤، ٦٥ .

فالخليل إذن لم يتناول اللغة بالدرس من قمة الهرم ، كما فعل من سبقه، وكما فعل من عاصره ، ولكنه تناولها من القاعدة ، فبدأ الدرس اللغوي بما يجب أن يبدأ به ، بداه بدراسة الأصوات (الحروف) التي تتألف منها مفردات اللغة ، ليعرف مواقع تلك الأصوات من جهاز النطق ، ويقف على خصائصها ، ومايترتب على تآلفها وتجاورها ، واستطاع بذلك أن يفسّر ظواهر لغوية لم تكن لتفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف وتفاعلها بتجاورها وتمازجها .

الدرس الصوتي عند الخليل

وخطا الخليل الخطوة الأولى بدراســة الأصوات اللغوية ، وبدأ هذه الخطوة بإعادة ترتيب الحروف ، فقد كانت مرتبة على النحو الذى كان معروفا من اللغات السامية ، وكانت حروف الهجاء العربية مرتبة فى كلمات ليس لهـا معنى معروف • وهي : أبجد • هوز • حطي • كلمن • سعفص • قرشت • ثخـذ • ضظغ •

ثم تغير هذا الترتيب فرتبت على أساس التشابه فى الصورة ، فبدئـت بالثلاثيات ، وهى : ب ت ث ، ج ح خ ، ثم بالثنائيات وهى : د ذ ، ر ز ، س ش ، ص ض ، ط ظ ، ع غ ، • ف ق ، ثم بالمفردات التى لا أشباه لها ، وتركت الهمزة حيث كانت فى الترتيب القديم متصدرة الحروف ، لتبعـــد عن الألف التي هي مدّ أبدا ، وســاكنة أبدا ، والتي لا تكون في الابتداء لسكونها ، والتى اعتمدت على لام قبلها (لا) ، وكان الداعى إلى هذا الترتيب هو عملية إعجام الحروف التى كانت ترسم مهملة •

وإذ فكر الخليل بترتيب جديد يقوم على اساس علمي اهتـــدى الـــى ترتيب حروف الهجاء على مالها من ارتكازات فى جهاز النطق ، وبدأ بحروف الحلق ، لأن مدرجة الحلق هى أولى المدراج ، و«صير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها فى الحلق[1] » ، ثم واصل بحثه فى المدارج ، ينتهى من مدرجة فينتقل الى المدرجة التى تليها الى الشفتين ، وكان ترتيب الحروف ، كمـــا يأتى :

ع ح هـ غ خ ــ ق ك ــ ج ش ض ــ ص س ز ــ ط ت د ــ ظ ذ ث ــ ر ل ن ــ ف ب م ــ ا و ى أ • وقد أوجز الخليل كلامــه فيما حكـــاه الأزهرى : « فالعين والحاء والهاء والخاء والغين ، حلقية ، والقاف والكاف لهويان ، والجيم والشين والضاد شَجْرية ، والشَّجْرُ مفرج الفم ، والصاد والسين والزاى أسلية ، لأن مبدأها من أسلة اللسان ، وهى مستدق طـرف اللسان ، والطاء والتاء والدال نطعية ، لأن مبدأها من نطع الغار الاعـــلى ،

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين في ١٩١٣ ص ٤ بغداد .

والظاء والذال والثاء لثوية ، لأن مبدأها من اللثة ، والراء واللام والنون ذولقية ، وهي الذلق ، الواحد أذلق ، وذولق اللسان كذولق السنان • والفاء والباء والميم شفوية ، ومرة قال : شفهية ، والواو والألف والياء هوائية •• نسب كل حرف الى مدرجته[2]» •

وكان الخليل اذا أراد أن يحدد مرتكز الصوت أو مخرجه «فتح فاه بألف ثم أظهر الحرف ، نحو أَبْ • أَحْ • أَعْ[3]» •

بهذه الطريقة استطاع الخليل أن يتذوق الحروف ، ويحدد مخارجها ، وهذا ما كان ميسَرا له ، ومع ما فى هذه الطريقة من سذاجة كان الخليل موفقا توفيقا عظيما الى أن يضع يده على كثير من النتائج العلمية الدقيقة التى انتهى إليها المحدثون بالاستعانة بتطور العلم والآلة •

وأراد الخليل ، بعد أن انتهى من ترتيبها بحسب مخارجها ، أن يقف على خصائصها ومزاياها ، وأطال النظر فى ذلك ، فلاحظ أن هذه الحروف لم تكن من طبيعة واحدة ، فبعضها يظل النَّفَس معه جاريا لا يعوقه شيء ، وبعضها يتعثر معه النفس ، ويقف عند مرتكز معين ، فلا يتأتى للمتكلم أن يتابع نفسه •

وأحصى الحروف التى يجرى معها النَّفَس فوجدها عشرة هى : الهاء والحاء والخاء والكاف والشين والسين والتاء والصاد والثاء والفاء ، وسماها الحروف المهموسة • وأحصى الحروف التى يتوقف معها النفس فوجدها تسعة عشر حرفا ، وسماها الحروف المجهورة ، ومجموع المهموسات والمجهورات تسعة وعشرون حرفا هى عدة حروف الهجاء فى العربية •

ثم أعاد النظر فى الحروف فرأى بعضها إذا وقف عليه احتاج إلى أن يضغط عليه ويحقره ، وهي حروف القلقلة ، أو الشديدة ، وهي عنده ثمانية أحرف : الهمزة • القاف • الكاف • الجيم • الطاء • الدال • التاء • الباء •

ورأى بعضها إذا وقف عليه أمكن إجراء الصوت معه ، وهى الحروف

---

(٢) تهذيب اللغة ٤٨/١ •

(٣) الجزء المطبوع ص ١ • لسان العرب ــ حرف العين •

الرخوة ، وهى عنده : الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد والزاى والسين والظاء والثاء والذال والفاء •

ورأى بعضها إذا وقف عليه جمع بين صفة الشديد وصفة الرخو ، فهذه الحروف عنده بين الرخوة والشديدة ، وهى أربعة أحرف ؛ العين والراء واللام والنون •

ثم أعاد النظر فى الحروف مرة ثالثة فلاحظ أن بعض الحروف أسهل على اللسان من بعض ، وأن أخف الحروف جميعا ستة أحرف ، ثلاثة منها مخرجها ذولق اللسان ، وهو طرفه ، وهى : الراء واللام والنون ، وثلاثة مخرجها الشفتان ، وهى الفاء والباء والميم ، وكان يرى أن هذه الأحرف الستة هى أسهل الحروف وأيسرها ، لمرونة عضل اللسان والشفتين ، ولذلك سمى المجموعتين بحروف الذلاقة تغليبا •

قال الخليل :«إن الحروف الذلق والشفوية ستة ، وهى الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، وإنما سميت هذه الحروف ذلقاً ، لأن الذلاقة في المنطق إنما هي لطرفأَسَلَةاللسان والشفتين ، وهما مدرجتا هذهالأحرف الستة منها ثلاثة ذلقية ، وهى الراء واللام والنون ، تخرج من ذلق اللسان من طرف غار الفم ، وثلاثة شفوية ؛ الفاء والباء والميم ، مخرجها من الشفتين خاصة ، لا تعمل الشفتان فى شىء من الحروف الصحاح إلا فى هذه الأحرف الثلاثة فقط ، ولا ينطلق طرف اللسان إلاّ بالراء واللام والنون[(٤)]» •

أما ما عدا هذه الأحرف الستة فكان الخليل يسميها صتما أو مصمتة ، وكان يقول : « ومهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط معرى من حروفالذلق والشفوية فإنه لا يعرى من أحد حرفى الطلاقة أو كليهما ، ومن السين والدال أو إحداهما ، ولا يضره ما خالطه من سائر الحروف الصُّتُم[(٥)] » •

فلسهولة هذه الأحرف ومرونة عضل مدرجتيهما ، كثر دورانها فى الكلام ، واستعان العرب بها على تيسير النطق بالأبنية التى تتألف من أكثر من ثلاثة أحرف ، أعنى الأبنية الرباعية والأبنية الخماسية ، واتخذ منها فى

---

(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٩ . لسان العرب ـ حرف الميم .

(٥) تهذيب اللغة ١/٤٥ . لسان العرب ـ حرف الباء .

هذه الأبنية مقياساً للأصيل منها والدخيل ، وكان يقول : «ولما ذلقت الحروف الستة ، ومذل بهن اللسان ، وسهلت فى النطق كثرت فى أبنية الكلام ، فليس شىء من بناء الخماسى التام يعرّى منها أو من بعضها ، فإن ورد عليك خماسى معرى من الحروف الذلق والشفوية فاعلم أنه مولد ، وليس من صحيح كلام العرب ، نحو الخضعثج والكشعطج ، وأشباه ذلك وإن أشبه لفظهم وتأليفهم ، فلا تقبلق منه شيئا ، فإن النحارير ربما ادخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة التلبيس والتعنت(٦)» .

ثم اعاد النظر فى الحروف مرة أخرى فلاحظ أن الحروف اللسانية طائفتان ؛ طائفة مستعلية ، وهى الطاء والظاء ، والصاد والضاد والقاف ، وسماها مطبقة ، لأن اللسان يرتفع معها إلى الحنك الأعلى حتى ليكاد ينطبق عليه . وطائفة مستفلة وهى باقى الحروف اللسانية ، وسماها منفتحة «لأنك لاتطبق لشيء منهن لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى (٧)» .

وتابع ملاحظته الحروف ، فرأى الحروف على نوعين ؛ معتل وصحيح. أما المعتل فثلاثة أحرف هي الألف والواو والياء ، وسميت معتلة لتغيّرها ، واستخلاف بعضها من بعض ، فالواو قد تصير ألفاً ، وقد تصير ياء ، والياء قد تصير ألفا ، وقد تصير واوا ، والألف اذا تعرضت للحركة صارت ياء أو واوا . أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق ، وهي مهتوتة مضغوطة فإذا رفّه عنها انقلبت الى ياء أو ألف ،أو واو ، فحالها حال الألف والواو والياء .

فأحرف العلة عنده أربعة أحرف ؛ الهمزة والالف والواو والياء ، وكان يقول : «أما الهمزة فلا هجاء لها ، إنما تكتب مرة ألفا ومرة واوا ، ومرة ياء(٨)» .

وأما الصحيح فسائر الحروف . وسميت صحيحة لثباتها وعدم تغيّرها من حال إلى حال ، إلاّ هاء التأنيث فإنها تصير تاء عند اتصال الكلام ، وانما

---

(٦) تهذيب اللغة ١/٤٤ .

(٧) الكتاب ٢/٤٠٦ .

(٨) تهذيب اللغة ١/٥١ . الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١٠ .

تغيرت الهاء في الاتصال الى تاء «ليفرقوا بينها وبين الأصلية فى بناء الكلمة[٩] .

ولا نعلم أحدا قبل الخليل تناول الحروف بالدرس تناول الخليل إياها ، وإلى الخليل وحده يعزى هذا العمل الضخم الذى كان متمما العمل القرآنى الذى بدأه أبو الأسود ، والذى كان عملا علميا يستند الى فهم واع لطبيعة العربية ، فقد أبدل الحركات بالنقط التي كان أبو الأسود قد استخدمها رموزا للفتحة والضمة والكسرة فى أواخر الكلمات ، فقد رمز للفتحة بألف صغيرة ترسم فوق الحرف ، وللضمة بواو صغيرة ترسم فوق الحرف ، وللكسرة بياء راجعة (ـ) استغنى عن احد شقيها ترسم تحت الحرف .. وزاد على هذا فوضع رمزا للهمزة ورمزا للتشديد على ما نعرف اليوم ، ووضع رموزا أخرى للاشمام ، والرَّوْم ، وغيرهما [١٠] .

ولم يقتصر نفع هذه العلامات على أواخر الكلمات فقط ، بل شملت سائر الحروف التى تتألف منها الكلمة ، ولم يخش معها من تصحيف أو تحريف ، لأنها ليست بنقط فتختلط بنقط الاعجام التى وضعها نصر بن عاصم الليثى تلميذ أبى الأسود ، واستطاع الدارسون ان يضبطوا كلمات النصوص القرآنية بالحركات ضبطا كاملاً ، واستطاع اللغويون أن يضبطوا بها أوزان المفردات اللغوية على اختلافها ، كأن يفرقوا بين بناء (فَعَلَ) محركة ، وبناء (فُعِلَ) بضم فكسر ففتح ، وبناء (فَعِلَ) بفتح فكسر ففتح ، إلى غير ذلك .

وبملاحظة الخليل الحروف على النحو الذى وصفناه ، واستقراء صفاتها ، والوقوف على طبائعها ، وكلامه على المجهور والمهموس ، والمستعلى والمستفل ، والشديد والرِّخو ، والأذلق والمصمت ، والصحيح والمعتلّ ، ووضعه هذه الألقاب ، وغيرها ، وكلامه على أبنية الكلمات ، كما سيجيء بيانه ... وجد الدارسون أمامهم السبيل ممهدة لدراسات جديدة ، فظهرت طائفة القرّاء اللغويين الذين أفادوا من عمل الخليل ، وسموا أنفسهم بأهل

---

(٩) تهذيب اللغة ١/٥٠ .
(١٠) انظر : المقنع لأبي عمرو الداني ١٢٥ .

التجويد ، وطائفة أخرى أتاح لها عمل الخليل أن تسلك في دراسة اللغة مسلكا آخر انصبّت العناية فيه على النظر في بناء الكلمة من حيث زنتها ومن حيث صحتها واعتلالها ، ومن حيث تجردها وزيادتها ، فكان علم التصريف الذى اتخذ من الكلمة غير المؤلفة موضوعا له .

ومن هنا ظهر زيف الدعوى التي زعمت أن معاذ الهراء كان واضع علم التصريف ، وهو زعم قال به السيوطى ، وتابعه الدارسون من بعده ، وجاز زيفه حتى على الدارسين المحدثين .

ومن الطريف حقا أن نرى مصطلحات علم الأصوات الحديث تتفق أكثرها مع المصطلحات التى وضعها الخليل ، وهى قريبة منها كل القرب ، بل كان كثير منها يشير إلى انها مصطلحات الخليل ترجمت ترجمة تكاد تكون (حرفية) .

فمصطلح (المجهور) يقابله بالانكليزية مثلا مصطلح Voiced

ومصطلح (المهموس) يقابله مصطلح .Unvoiced أو Voiceless

ومصطلح (الشديد) يقابله مصطلح .Plosive أو Stop

ومصطلح (الرّخـو) يقابله مصطلح .Fricative أو Continuant

ومصطلح (المكرر) وهو الراء يقابله مصطلح .Rolled أو Trilled

ولم يكن لعلم الأصوات اللغوية عند الغربيين تاريخ بعيد ، وكل ما كان لهم من ذلك هو ما سبق إليه اليونان من دراسة للظواهر الصوتية من ناحية السماع ، ولم يتناولوا دراسة الأصوات من حيث مخارجها ، ولا من حيث صفاتها بالصورة التى تمّت على يد الخليل ، ولم يسبق الخليل الا بهذه الدراسة ، وبدراسة صوتية أخرى قام بها الهنود ، تناولت مخارج الحروف

---

(١١) ومن اجل الوقوف على سائر المصطلحات سواء أكان منها ما يتعلق بالمخارج او الصفات يراجع :

P. 106-107 Gairdner, The Phonetics of Arabic, Oxford Uni. Press.
The Phonetics of English, IDA C. Word.
English Phonetics, Walter Ripman.

فقط ، وبذلك استكملوا ما فات اليونان استكماله ، وخلفوا ما سماه المحدثون بعلم الأصوات الوصفي : Discription Phonetics.

ومهما يقل فى مصدر هذه الدراسة فإن الخليل بن أحمد كان أول من عرض لها بين علماء العربية ، وأول من نبّه الأذهان إلى جدوى هذه الدراسة لفهم اللغة ، وفقه بنائها العام ، وأول من لفت الأذهان إلى الصوت اللغوي وأهميته في الدرس اللغوي ، وإلى دراسة مخارج الحرف ، وصفاتها ، وتمازج بعضها مع بعض .

وليس هناك ما يشير إلى أن الخليل كان متأثرا بعمل سبقه ، أو كان واقفا على ما أنجزه اليونان والهنود مما يتعلق بالأصوات اللغوية .

وإذا صح أن يكون الخليل متأثرا بمن سبقه من اليونان والهنود فى دراسة مخارج الحروف وصفاتها ــ وذلك ما لم يصح عند الدارسين ــ فإن الخليل كان الرائد إلى دراسة الآثار التى تترتب على تمازج الحروف وتجاورها . وللخليل فى ذلك دراسة وافية ، وآراء ، وأوضاع تجد لها ظلا واضحا فى الدراسة الصوتية الحديثة ، أو علم الأصوات .

بعد أن انتهى الخليل من مراقبة الحروف فى أثناء إخراجها ، وتحديد مخارجها ، وملاحظة ما لها من صفات أخذ يراقب الأصوات حين تتآلف وتتجاور ، فلاحظ أن بين الأصوات تجاذبا وتفاعلا ، وأن اللسان ينطلق عند تجاور بعضها انطلاقا سهلا ، ويتعثر عند تجاور بعضها الآخر .

ولاحظ أن أفصح الكلمات ما كان مؤلفا من أصوات متباعدة المخارج أو متقاربة الصفات ، وأن من العسير على اللسان أن ينطلق بصوتين متجاورين وهما مختلفان فى الصفة ، كأن يكون أحدهما مجهورا والآخر مهموساً ، أو يكون أحدهما منطبقا والآخر منفتحا مثلا .

فإذا تجاور صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس تفاعلا وتجاذبا حتى يتحدا فى الصفة ، ويكونا مجهورين معا ، أو مهموسين معا . كذلك لاحظ

---

(١٢) محاضرات الدكتور فؤاد حسنين على طلبة اللهجات العربية ١٩٤٩/ ١٩٥٠.

أن الصوتين إذا تقاربا شديدا صعب على اللسان تحقيقهما ، وتحيّل عليهما ، وعمد إلى توحيدهما حتى يكونا من مخرج واحد •

لذلك كان من فصاحة الكلمة ألا يكون بين أصواتها تنافر يصعب معه على اللسان أن ينطلق بالكلمة • والتنافر بين الاصوات عند الخليل انما يكون اذا تجاور صوتان مختلفان فى الصفة ، كتجاورهما فى كلمة (مستشزرات) فقد تجاورت فيها الشين وهى حرف مهموس مع الزاى ، وهى حرف مجهور •

أو اذا تجاور صوتان متقاربان في المخرج ، ويزداد التنافر شدة اذا كان الصوتان من درجة او حيز صلب العضل كتجاور الهاء والعين فى كلمة ، وهما متقاربان فى المخرج ، ولا تأتلف الهاء والعين فى العربية الا اذا كانتا مفصولتين بفاصل ، نحو : هَرِعَ ، هلع ، أو كانت العين متقدمة نحو : عهد ، عهن ، ولذلك كان يقول «سمعنا كلمة شنعاء وهى الهعخع ، فأنكرنا تأليفها[١٣]» •

ورأى الخليل أن القاف والكاف لا يأتلفان الا في كلمات معربة، وكان يقول: « تأليفهما معقوم في بناء العربية لقرب مخرجيهما [١٤] » •

وأن الضاد والكاف لا تجتمعان متصلتين ، ولا يحسن اجتماعهما الا بفصل لازم ، نحو : الضحك ، والضنك ، ولم ترد الضاد والكاف متصلتين الا فى المضعف كالضكضكة والكضكضة ، وهما مشى فى سرعة • وكان الخليل يقول : « هو جائز في تأليف المضعف نحو : الضكضاكة [١٥] » •

وأن الالف والواو والياء اذا كن مدا لا يلين الا حركة تجانسهن ، فالالف قبلها فتحة والواو المد قبلها ضمة ، والياء المد قبلها كسرة ، لان طبيعتهن تقوم على تحريك ما قبلهن بحركة تناسبهن • وكان يقول فى (ياء المتكلم) وهي مدّ : « ليس في الدنيا حرف تلحقه ياء الاضافة الا كان متحركا مكسورا» •

وفطن الخليل في اثناء ملاحظته الحروف وهي تأتلف بعضها مع بعض لظواهر لغوية رأى انها لم تكن لتكون لولا تجاور بعض الحروف لبعض ،

---

(١٣) جمهرة اللغة ١/ ٩٠.

(١٤) لسان العرب ــ حرف القاف •

(١٥) تهذيب اللغة ١/٤٦ •

وامتزاج بعضها ببعض ، وهى مختلفة فى الصفة ، أو متقاربة فى المخرج ، وهذه الظواهر اللغوية المترتبة على تجاور الحروف على هذا النحو هى : الادغام والابدال والاعلال .

أما الادغام فهو فناء احد الصوتين فى الاخر ، ولا يفنى صوت في صوت الا اذا كانت صفة احدهما تخالف صفه الاخر ، جهرا وهمسا ، او انطباقا وانفتاحا ، او شدة ورخاوة ، او غير ذلك .

ونعنى بفناء صوت في آخر : اتحاد الصوتين صفة ومخرجا ، كاتحاد اللام والشين مثلا في قولنا : (الشّمس) ، ولاتحاد النون والياء في قولنا : (مَن يَّعمل) .

وأما الابدال فهو تقريب أحد الصوتين من الآخر مخرجا وصفة ، كتقريب (التاء) من (الضاد) بإبدالها (طاء) في (افتعل) من (ضرب) ، أي : اضطرب ، أو في (أفتعل) من (صبر) ، أي : اصطبر ، وهكذا .

وكتقريب (التاء) من الزاي في افتعل من (زان) أي : ازدان ، أو في افتعل من (زهر) ، أي : أزدهر ، أو في افتعل من (ذكر) أي : ادّكر ، وهكذا .

وأما الإعلال فهو إبدال إلاّ أنه ابدال يقع بين أصوات العلة خاصة ، كإبدال الواو ياء في (طيّ) وهي من (طويت) ، أو في (حيّ) وهي من ونحو دلك .

وكان الخليل قد عرض لهذه الظواهر في أثناء مراقبته الأصوات حين تتجاور وتتفاعل ، فهي إذن ظواهر لغوية تترتب على ما للأصوات من خصائص وصفات ، ولا علاقة لها ببنية الكلمة ، ولذلك كان من سهو علماء التصريف أن جعلوا الإدغام والابدال والاعلال موضوعات لدراستهم ، لأن موضوع دراستهم هو بنية الكلمة ، وما يعرض لها من تغيرّ في زنتها ، أو زيادة في أصولها ، أو اعتلال في بعض أصولها ، وليس الإدغام والابدال والاعلال مما

يعرض لبنيـــة الكلمة لكنه يعرض للصوت حين يجاور صوتا يخالفه في الصفة، أو يقاربه في المخرج •

وهذا التخليط الذي وقع فيه علماء التصريف يدل على أنهم لم يقيموا دراستهم على فهـم واع لحدودها وموضوعاتها ، ويدل أيضا على أنهم لـم يتفهموا ما كان الخليل يرمي اليه •

وليس تأثر الحروف بعضها ببعض مما اختصت به العربية ، فهي ظاهرة معروفة في اللغات غير العربية أيضا ، وقد حفلت الدراسة الصوتية الحديثة بتسجيل ما يترتب على الأصوات حين تتألف وتتجاور ، وللوقوف على أمثلة لتأثر الأصـــوات بعضها ببعض تراجع مؤلفات الدارســين المحدثين في علم الأصوات اللغويـــة • (١٦) •

وهذا الذي التفت الخليل اليه ، أعني دراسة الحروف ومراقبتها في تآلفها وتمازجها ، عمل أصيل ، وكان الخليل رائدا فيــه ، لم يســبقه اليه دارس قبله ، وهـــو عمل لغويّ سليم أنجزه الخليل منـــذ أكثر من مئتين وألف سنة ، وهو الآن معدود في منجزات علم اللغة الحديث • واذا وازن الدارس بين ما كان الخليل قد توصل اليه ، وما توصل اليه الدارسون المحدثون رأى تأثير الخليل واضحا في علم الأصوات اللغوية الحديث ، وان لم يلمس الأسباب التي تصل الدرس الحديث به ، ولم يتضح له السبيل التي سلكها اليه ، فإذا كان علم الأصـــوات اللغوية الحديث معدودا في منجزات العصـــر الحديث فالخليل بن أحمد فيه نصيب الرائد الذي أمدّ الدرس اللغويّ الحديث ، وعلم الأصوات اللغوية خاصة بأسباب النموّ والحياة •

وكان الخليل من دقة الملاحظة عنده أن تمثلت لديه الخصائص الأصيلة التي اتسمت بها العربية بوصفها احدى اللغات السامية فما كان قاله الخليل قديما قاله الدارســون المعنيون بالساميات ، والموازنة بينها ، واســتخلاص الخصائص المشتركة بينها من دون علم بغير العربية من اللغات السامية الأخرى،

---

(١٦) P. 190, The Phonetics of English Dr. IDA C. Ward.
راجع ايضا الفصل الذي كتبه Walter Ripman في (الأصوات اللغوية الانكليزية) ص 141 لبحث التفاعل بين الأصوات المتجـاورة Influence of Adjacent Sounds.

فلم يعرف عن الخليل أنه كان يلم بالساميات أو إحداها ، حتى التي كانت على صلة بالعربية كالسريانية ، وكان هذا لافتا أنظار الدارسين منذ القديم ، فقد كان يونس بن حبيب ، وكان يعاصره ، يزعم « أن الخليل بن أحمد كان يستدلّ بالعربية على سائر اللغات ، ذكاء منه وفطنة » (١٧) .

لم يعرف عن الخليل أنه كان على صلة باحدى اللغات ، ولم يتحدثعنه أصحابه والملازمون له أنه كان يعرفها ، مع أن بعض الدارسين كان قد كبر عليه أن يجهل الخليل لغة أخرى غير العربية ، فنسب اليه الالمام باليونانية ، أو عزّ عليه أن يكون الخليل قد وصل الى ما وصل اليه من غير أن يستعين بغيره ، أو يتلقف علمه من الأجانب الذين طواهم المجتمع الجديد في البصرة . لقد نسبوا اليه المعرفة باليونانية ، ونسبوا اليه الوقوف على ما كان لدى الهنود من ثقافة لغوية أو عروضية ، نسبوا اليه هذا وذاك ، ولكن أحدا لم ينسب اليه الالمام باحدى اللغات السامية كالسريانية أو العبرية أو غيرهما .

ولكن نظرته الى خصائص العربية كانت نظرة الملمّ باللغات السامية ، المحيط بخصائصها ، فقد صدرت عنه أقوال تعدّ الآن من مكتشفات الدرس الحديث .

كان الخليل يتحدث عن بناء الكلمة العربية ، فذكر أن البناء « انما هو الساكن الذي لا زيادة فيه » ، وذكر « أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به .... فالفتحة من الألف ، والكسرة من الياء ، والضمة من الواو » (١٨) . ويريد بالساكن : الحرف الصحيح ، أو ما يسمى بالانكليزية Consonant ، وكان يعنى أن الأصول التي تبنى منها الكلمة ، لا تكون إلاّ من الحروف الصحاح ، وأن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن البناء للتمكن من النطق به ، لأن الحروف الصحاح وحدها لا يمكن النطق بها ، فالحركات اذا لحقت البناء فانما تلحقه للتوصل الى التكلم به ، ويعني هذا أيضا أن اللفظ الذي يدل على المعنى انما هو اللفظ الذي يتألف من الصحاح ، لا من المعتلات ، وليس لحروف العلة دخل في دلالة الكلمة على معناها .

(١٧) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ٩٧ .
(١٨) الكتاب ٢/٣١٥ بولاق .

ويعني هذا أيضا أن المعتلات الثلاثيات إنما هن ثنائيات ، وأن دلالة الكلمات المعتلة على معانيها متأتّية مما فيها من صحاح . وفي هذا لمح" للثنائية العربية الأولى قبل أن تستقر في الثلاثي" .

فإذا رجعنا الى الدرس اللغوي الحديث رأينا المتخصصين بالساميات يتحدثون عن خصائص اللغات السامية بمثل ما كان الخليل يتحدث به عن خصائص العربية مما أثبتناه هنا .

فقد ذكر الدارسون المحدثون أن من الخصائص المشتركة بين اللغات السامية : أنها تعتمد على الحروف الصامتة وحدها ، ولا تلتفت الى الأصوات الصائتة .

قال ولفنسون : « تتميز اللغات السامية في بعض أحوالها عن أنواع اللغات الأخرى بمميزات وخصائص تجعل من كل هذه اللغات كتلة واحدة ، وأهم تلك المميزات تنحصر فيما يأتي :

أن اللغات السامية تعتمد على الحروف (Consonnes) وحدها ، ولا تلتفت إلى الأصوات Voyelles بمقدار ماتلتفت إلى الحروف »[١٩] . ثم أخذ يذكر الخصائص الأخرى .

وذكر الدكتور علي عبدالواحد وافي أن من خصائص اللغات السامية أن « المعنى الأساسي للكلمة يشار اليه غالبا بالأصوات الساكنة ، أما الأصوات اللينة فلا تعدو وظيفتها في الغالب تحديد هذا المعنى العام (المدلول عليه بالأصوات الساكنة) وتوجيهه وجهات خاصة »[٢٠] .

وقال الدكتور جواد علي : إنّ من الخصائص التي امتازت بها مجموعة اللغات السامية « اعتماد هذه المجموعة على الحروف الصامتة Konsonant أكثر من اعتمادها على الأصوات Vokale ، فنرى أن أغلب كلماتها تتألف من اجتماع ثلاثة أحرف صامتة ، أما الأصوات [يعني الصائتة] فلا نجد لها حروفا تمثلها في اللغات السامية »[٢١] .

(١٩) ولفنسون – تاريخ اللغات السامية ١٤ .
(٢٠) علي عبدالواحد وافي – فقه اللغة ٢٠ ط ثالثة .
(٢١) جواد علي – تاريخ العرب قبل الاسلام – القسم اللغوي ٢٩/٧ ط الاولى

وكان الخليل يبحث في عدة أحرف الكلمة المجردة ، أو أصول البناء فرأى أن الكلمة لا تقل أصولها عن ثلاثة ، وأن الاسم مثلا « لا يكون أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يبتدأ به ، وحرف تحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه ، فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد ، وعمر ، ونحوهما من الأسماء ، بدىء بالعين ، وحشيت الكلمة بالميم ، ووقف على الراء » (٢٢) .

ثم قال : « وقد تجيء أسماء لفظها على حرفين ، وتمامها ومعناها على ثلاثة أحرف ، مثل : يد ، ودم ، و فم ، وإنما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلفها السكون[يريد النون الساكنة المسماة بالتنوين] فلما جاء التنوين ساكنا اجتمع ساكنان فثبت التنوين لأنه إعراب ، وذهب الحرف الساكن» (٢٣) .

كان الخليل يحسّ احساسا لغويا عميقا بأن الوحدة الكلمية في العربية هي الثلاثي ، واذ واجهته بعض الثنائيات تأول فيها ليكون الأصل الذي طرحه عاما ومطردا ، ولا يعني تشبثه بالحرف الثالث إلاّ رؤيته الصادقة أن الكلمة العربية لابدّ أن تكون على ثلاثة أحرف .

فإذا رجعنا الى الدرس الحديث رأينا الباحثين يثبتون للغات السامية ما سبق للخليل أن أثبته للعربية ، فقد ثبت لديهم أن أغلب الكلمات السامية تتألف من ثلاثة أصول ، أو أن الوحدة الكلمية الغالبة في اللغات السامية هي الثلاثي (٢٤) .

ومن الخصائص المشتركة بين اللغات السامية التي التفت اليها الدارسون المحدثون : أن المعنى مدلول عليه بالأصوات الساكنة وحدها .

قال الدكتور جواد علي : « فالأحرف الثلاثة الصامتة إذن هي التي تكوّن مفهوم الكلمة وهيكلها » (٢٥) .

وقال الدكتور (وافي) : « وقد سرت أهمية الأصوات الساكنة في الدلالة والنطق الى الرسم نفسه ، فأهم ما يعنى الرسم السامي باظهاره هو الأصوات الساكنة » (٦٥) .

---

(٢٢) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣ .
(٢٣) المصدر نفسه .
(٢٤) تاريخ اللغات السامية ١٤ . تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/ ٣٠ . فقه اللغة ـ وافي ١٦ .
(٢٥) تاريخ العرب قبل الاسلام ٧/ ٣٠ .
(٢٦) فقه اللغة ـ وافي ٢٠ .

يريدان الى القول إن الأصوات الساكنة الثلاثة هي التي يتألف منها هيكل الكلمة السامية ، وهي وحدها التي تدل على المعنى المفهوم منها .

وهذا هو ما سبق الخليل الى القول به ، فقد كان يرى « أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد ، وهن يلحقن الحرف ليوصل الى التكلم به ، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه » .

واذا كانت الحركات زوائد ، وحروف العلة زوائد أيضا ، لأن الحركات منها فدلالة الكلمة على معناها تتوقف على الأصوات الساكنة وحدها ، لأن للحركات عنده وظيفة لغوية أخرى غير الدلالة ، وهي تيسير التكلم بالساكن .

وكان من عمق نظره في اللغة أن توصّل الى تفسير كثير من المفردات تفسيرا لم يصل اليه غيره ، فقد واجه كلمات غير مألوفة البناء و لا مفهومة الأصل، ففسرها تفسيرا كان موفقا الى صواب القول في أكثرها، نحو : ليس ولن، ومهما وغيرهن ، فذهب الى أنهن مركبات ولسن مفردات .

وقد تصدى لهن ّ غيره ممن لم يكن له عدّة الخليل في الدرس ، ولا دقة ملاحظته للاستعمال ، وكانوا ينطلقون من منطلق لا صلة له بالدرس اللغوي ّ ، فأنكروا تركيبهن ، وذهبوا الى أنهن مفردات ، لأنهن حروف ، وأن التركيب انما يكون في الأسماء والأفعال فقط ، ونظروا فيما ذهب الخليل اليه فمنعوه ، وعدوا رأي الخليل فيهن شاذا ، لأنه خلاف الأصل (٢٧) .

أما ليس ، فأصلها عند الخليل : لا أيس « ثم طرحت الهمزة والألف ، وألزقت اللام بالياء » (٢٨) .

وقد تابعه الفراء في القول بتركيبها ، وايّده بسماع من العرب . قال : « أصل ليس : لا أيس ، ودليل ذلك قول العرب : ائتني به من حيث أيس وليس ، وجيء به من حيث أيس وليس . أي : من حيث هو ، وليس هو» (٢٩) .

وأمّا (لن) فهي عند الخليل : لا أن « ولكنهم حذفوا لكثرته في كلامهم،

---

(٢٧) الأشباه والنظائر ١/٩٤ .

(٢٨) لسان العرب ــ ليس .

(٢٩) المصدر نفسه .

كما قالوا: ويلمّه، يريدون : وَيْ لأمه، وكما قالوا : يومئذٍ، وجُعِلَت بمنزلة حرف واحد ، كما جعلوا (هلّا) بمنزلة حرف واحد ، فإنما هي : هلَ ولا (٣٠).

وأما (مهما) فهي عند الخليل مركبة من(ما)في الشرط و(ما) التي تلحق لغوا بمتى في قولك : متى ما تأتني آتك ، وبأين في قوله تعالى : «أينما تكونوا يدرككم الموت » ، وبأيٍّ في قوله تعالى : « أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » ، ولكنهم « استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا فيقولوا : (ماما) ، فابدلوا الهاء من الألف في الأولى » (٣١).

وعالج الخليل كثيرا من الأدوات فقال بتركيبها (٣٢).

وجاء الدرس الحديث فأيد مذهب الخليل في (ليس) فزعم برگشتراسر انه « اشتقت من (لا) أدوات أخرى للنفي لا توجد في سائر اللغات السامية إلا (ليس) فيقابلها في الآرامية : Lait ، وهي مركبة من (لا) واسم معناه الوجود يحتمل أن يكون لفظه القديم (iitai) أو قريبا من ذلك ، وهو : ايس ies في العبرية ، وإيتي itai في الآرامية العتيقة ، ويقاربها في الأكدية فعل ، وهو isu ايسو ، أي : يملك الشيء ، وهو له ، فمعنى Lait : لا يوجد ، وهذا هو معنى (ليس) الأصلي » (٣٣).

وأيّد مذهبه في (لن) فقال برگشتراسر : « لن مركبة من (لا) و (أن)»، وحملها على (لم) و (كم) فقال : « كما أن (لم) أصلها .La-ma ، و (كم) أصلها : Kama ، و (لكن) مركبة من (لا) و (كن) المقابلة لكلمة (Ken) العبرية التي معناها : هكذا » (٣٤).

وقد دونت هذه الآراء ، ونقلت عن الخليل ، ووقف عليها الدارسون في عصره ، وبعده ، غير أنهم لم يفهموا ما عناه الخليل ، ولم يتمثلوا ما وصل

---

(٣٠) الكتاب ١/٤٠٧ .
(٣١) الكتاب ١/٤٣٣ .
(٣٢) للوقوف على تفصيل ذلك يراجع (الخليل بن احمد الفراهيدي ـ أعماله ومنهجه) ٢٠١ ـ ٢١٤ .
(٣٣) التطور النحوي للغة العربية ١١١ .
(٣٤) المصدر نفسه .

اليهم عنـه ، وبقيت هذه الآراء قابعة في ثنايا الصفحات ، لم يفد منها إلا بعد حين ، أو بعد أكثر من قرنين ، على يد أبي علي الفارسي ، وتلميذه أبي الفتح بن جني .

ولم يقف الخليل عند هذه الأقوال ، فقد شملت أقواله اللغة العربية كلها، واستطاع أن يسجل كثيرا من الخصائص التي يتفق بعضها مع خصائص اللغات السامية الأخرى ، ويختلف بعضها الآخر معها مما هو من خصائص العربيـة التي انفردت بها ، وقد عرض لبناء الكلمة من حيث عدد حروفها ، ومن حيث تجردها وزيادتها ، ومن حيث الابتداء بها والوقف عليها ، وكانت أقواله في ذلك كله تدل على فهم واع عميق لطبيعة العربية ، وفقه متقصّ للاستعمالات ، وتأثيرها في البناء .

واذا وقفت على أقواله أخذ بك العجب كل مأخذ ، وعرفت أنك أمام دارس من طراز خاص كانت العربية بظواهرها ومشكلاتها ، وغوامضها، وغريبها، ونادرها طوع ذهنه الناقد يصرفها كيف يشاء، ويفسّر ظواهرها وغوامضها، وغريبها ويحلّ مشكلاتها ، ويستنبط أصولها وقواعدها ، ويضيف الى العلم اضافات لم يكن للعلم بمثلها عهد ، واذا لم يستطع الدارسون من بعده أن يلموا بها أو يفهموها فقد استطاع الدرس الحديث أن يحييها ويفيد منها .

استطاع الخليل ، بطول تدبّره في اللغة ، ودقة ملاحظته للاستعمالات أن يكوّن لنفسه رأيا يتعلق بنشأة اللغة وتطورها ، وتأثير الاستعمال فيها .

ولا أزعم أن له نظرية مكتملة ، ولكني أزعم أنه كان يلمح هذه النظرية ، ويتمثلها بآية ما كان يدلي به من آراء ، ويمله من أقوال حفظتها كتب القدماء ، وتناولها الدارسون بالشرح والتعليق . وقد كان بين العلماء منذ القديم خلاف في نشأة اللغة ، وكان لهم في نشأتها نظريات .

فقد ذهب بعضهم الى أن اللغة وحي والهام . وقد قال بهذا علماء غربيون وشرقيون ، وقدماء ومحدثون . ومن الدارسين العرب القائلين بهذا فقهاء ، ومتكلمون وأصوليون ولغويون .

فمن الفقهاء : عبد الله بن عباس ، احتجاجا بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلّها » [١] .

ومن المتكلمين : الأشاعرة [٢] .

ومن الأصوليين : ناس كثير منهم ابن الحاجب [٣] .

ومن اللغويين : ناس كثير أيضا منهم أحمد بن فارس اللغوى[٤] ، وأبو على الفارسيّ [٥] .

وذهب بعضهم الى أن اللغة اصطلاح ، وأن الواضع انما هو البشر ، ذهب الى ذلك المعتزلة[٦] ، وذلك « كان يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا الى الابانة عن الاشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة

---

(١) تفسير الطبري ١/١٧٠ . الجامع لأحكام القرآن ١/٢٨٢ . البحر المحيط ١/١٤٥ . مجمع البيان ١/٧٧ . روح المعاني ١/٢٢٤ .

(٢) ابن الحاجب ـ منتهى الوصول الى الأصول ٢٠ . روح المعاني ١/٢٢٤ .

(٣) منتهى الوصول ٢٠ .

(٤) الصاحبي ٥ .

(٥) الخصائص ١/٤٠ .

(٦) روح المعاني ١/٢٢٤ .

ولفظا ، اذا ذكر عرف به ما مسّماه ، ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن احضاره الى مرآة العين »[٧] .

وذهب بعضهم الى أن اللغة ظاهـــرة اجتماعية[٨] ، أوجدتها المجتمعات الانسانية ، ودفعت المجتمعات اليها حاجتها الى التفاهم ، والى التعبير عما يخالج نفوس الافراد ، وقد نشأت أول أمرها من الرغبة في حكاية الاصوات ، ثـــم خضعت هذه الظاهرة للتطور شأن كل ظاهرة اجتماعية .

ولا يعنى هذا أن اللغة كلها محاكاة للطبيعة ، ولكنه يعنى أنها نشأت أول الامر بمحاكاتها ، ثم سارت في طريق الرقىّ حتى تباعد ما بين مدلولاتها الحسية الاولى ، ومدلولاتها المعقولة التى آلت اليها .

وقد قال بهذا قدماء ومحدثون . ومن القدماء في الدرس العربى الذين قالوا بهذا : أبو الفتح بن جنى ، وقد عرض رأيه هـــذا في الخصائص ولكنه عرضه على أنه رأى قديم .

وخلاصة هذا الرأى : « أن أصل اللغات كلها انما هو من الاصـــوات المسموعات ، كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ... ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » وكان هذا الرأى عند ابن جنى وجها صالحا ، ومذهبا متقبّلا[٩] .

وهذه النظرية هى أقرب النظريات الى المعقول ، وأشبهها بطبيعة اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية .

واذا تتبعنا أقوال ابن جنى ، واستقرأنا أقوال اللغويين قبل ابن جنى ، وقفنا عند الخليل وأقواله ، وان لم يشر ابن جني اليه ، فقد صدرت عن الخليل أقوال تشير الى هذا المذهب وتفسره ، ويستطيع الدارس أن ينسب هذا الرأى مطمئنا الى الخليل ، فهو صاحب هذا الرأى بين علماء العربية ، لان الدارس لم يقف لغيره ممن سبقه أو تأخر عنه على كلام فيه ، ولست أزعم ، كما قلت، أن للخليل في هذا نظرية تامة التكوين ، ولكني أزعم أنها كانت ماثلة في ذهنه.

---

(٧) الخصائص ١/٤٤ .
(٨) منهج البحث واللغة ـ مايه ولانسون ٦٢ .
(٩) الخصائص ١/٤٦ ، ٤٧ .

وقد استتبع الخلاف في نشأة اللغة خلافا في دلالة اللفظ على المعنى ، فمن قال بوجود واضع معيّن ذهب الى انه ليس بين اللفظ والمعنى مناسبة طبيعية ، لان المناسبة بينهما انما تحققت بوضع الواضع هذا اللفظ لهذا المعنى .

ومن القائلين بهذا : ابن الحاجب ، فقد قال : « ليس بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية »(١٠) .

ومن قال ان اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت أول الامر حكاية للاصوات المسموعات من الطبيعة والحيوان والانسان ذهب الى أن المناسبة بين اللفظ والمعنى طبيعية ، لان اللفظ انما هو مجموعة من الاصوات التى حوكى بها المسموع من أصوات الادميين والحيوانات والاشياء .

واذا وقفنا على أقوال الخليل ، وأنعمنا النظر فيها عرفنا أنه كان أول الذاهبين الى وجود العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله .

قال الخليل : « صرّ الجندب صريراً ، وصرصر الاخطب صرصرة ، كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدّا ، وتوهموا في صوت الاخطب ترجيعا »(١١) .

وقال : « يقولون : صل اللجام صليلا ، فلو حكيت ذلك قلت : صلّ تمدّ اللام وتثقلها ، وقد خففتها(١٢) من الصلصلة ، وهما جميعا صوت اللجام ، فالتثقيل مدّ ، والتضعيف ترجيع »(١٣) .

وقال عند كلامه على نوني التوكيد الخفيفة والثقيلة : « انهما للتوكيد ، كما التى تكون فصلا ، فاذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكد ، واذا جئت بالثقيلة فأنت أشدّ توكيدا »(١٤) .

---

(١٠) منتهى الوصول الى علم الأصول ١٩ .
(١١) تهذيب اللغة ١/٤٩ . الخصائص ٢/١٥٢ .
(١٢) لعلّ في الكلمة تصحيفا ، ولعل الكلمة هي : (ضعّفتها) ، وذلك بدلالة قوله : والتضعيف ترجيع ، ولكنها جاءت هكذا فى النص المنقول من كلام الأزهري فى التهذيب .
(١٣) تهذيب اللغة ١/٤٩ .
(١٤) الكتاب ١/١٤٩ .

فقد أدرك الخليل أن الاختلاف بين اللفظين الدال أحدهما على صوت الجندب ، والدال ثانيهما على صوت الاخطب ، يرجع الى الاختلاف بين طبيعتى الصوتين ، وليس هذا الصوت الممتدّ في (صرّ) بالتشديد الا حكاية لما في صوت الجندب من استطالة وامتداد ، وليس الصوت المقطّع في (صرصر) بالتضعيف الا حكاية أيضا لما في صوت الاخطب من تقطيع • ومثل هذا : صلّ ، وصلصل في صوت اللجام ، والنون الخفيفة ، والنون الثقيلة في التوكيد •

ولاحظ الخليل أن المصادر التي تجيء على (الفَعَلان) محركة انما تجيء حكايــة لما تدل عليه من حركة واضطراب ، فلم يقولوا : غليان ودوران ، وغثيان الا حيث يكون التقلب والتحرك والاضطراب •

وقد نسب ابن جنى هذا الى سيبويه فقال : « قال سيبويه في المصادر التى جاءت على الفعلان انها تأتى للاضطراب والحركة ، نحو : النقزان والغليان والغثيان ، فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الافعال »[١٥] •

وقد وهم ابن جنى أكثر من وهم ، فهو :

١ ـ لم ينقل النص ، كما جاء في (الكتاب) من جهة •

٢ ـ وغيّر في عبارته من جهة ثانية •

٣ ـ ونسبه الى سيبويه وهو للخليل من جهة ثالثة •

أما عبارة سيبويه في الكتاب فهى : « ومن المصادر التى جاءت على مثال واحد حين تقاربت المعانى قولك : النزوان والنقزان ، والقفزان ، وانما هــذه الاشياء في زعزعة البدن ، واهتزازه في ارتفاع ، ومثله ، العَسَلان والرتكان •• ومثل هذا : الغليان لانه زعزعة وتحرّك • ومثله الغثيان ، لانه تجيّش نفسه وتثوّر • ومثله الخطران واللمعان ، لان هذا اضطراب وتحرك ، ومثل ذلك : اللّهَبان والوهجان ، لانه تحرّك الحرّ وتثوّره ، فانما هو بمنزلة الغليان »[١٦] •

فالنص فى الكتاب يختلف عنه في الخصائص ، وليس في نص الكتاب عبارة (فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الافعال) ، وليس صحيحا نسبة

---

(١٥) الخصائص ٢/١٥٢ •

(١٦) الكتاب ٢/٢١٨ •

هذا القول الى سيبويه ، لان سيبويه بعد أن ذكر هذا ، وذكر بعده ما جاء على (فعيل) ودلالته قال « وهكذا مأخذ الخليل[17] » فالفكرة ليست لسيبويه ، كما وهم ابن جنى ، ولكنها للخليل ، لانها بسائر أفكاره ألصق وأشبه •

وبعد أن ذكر ابن جنى هذا قال : « ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ما حدّاه [يعنى الخليل وسيبويه] ومنهاج ما مثّلاه ، وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعّفة تأتى للتكرير ، نحو : الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والصعصعة ، والجرجرة والقرقرة »[18] •

وكأنّ ابن جني بزعمه هذا كان يوهم الدارسين أنه قد توصّل الى أشياء لم يقلها الخليل ولا سيبويه ، ولكنه اهتدى بأقوالهما ففتح الله عليه ما لم يفتحه عليهما ، ولكن هذا وهم يلفت انتباه الدارسين الى لزوم التثبت في سائر أقواله قبل نسبتها اليه ، لان القول بدلالة المصادر الرباعيـة المضعّفة على التكرير ليس من اكتشافه ، ولا من اختراعه ، فقد سبقه الخليل اليه ، فليست الصرصرة والصلصلة ، وقد جاءتا في كلام الخليل الا من أمثلة الرباعي المضعف، وقد نبه الخليل في صراحة ووضوح الى دلالتهما على التكرير ، وقد أثبت ابن جنى نفسه مقالة الخليل في صرير الجندب وصرصرة الاخطب في صدر الباب التي أورد فيه هذه الامثلة •

فالخليل بعد هذا كله هو المصدر الذى صدر عنه ابن جني وأستاذه أبو علىّ ، وهو رئيس المدرسة اللغوية التى نسبت اليهما ، وهو الذى مهّد لهذه المدرسة السبيل الى دراسة اللغة على أساس هـذا المبدأ اللغوى القائم على أساس من حكاية اللغة للاصـوات ، ووجود المناسبة الطبيعيـة بين الالفاظ ومدلولاتها ، ولا أظن ما جاء به أبو علىّ وتلميذه الا شرحاً لما قاله الخليل ، وتفصيلا لما أجمله ، وليست فكرة الاشتقاق الكبير القائم على أساس التقاليب المختلفة للكلمة الاّ تطبيقا للفكرة التى أجملها الخليل ، وهى تشير في وضوح

---

(١٧) الكتاب ٢/٢١٨ •

(١٨) الخصائص ٢/١٥٣ •

الى أن دلالة اللفظ على معناه انما تقوم على ما للاصوات من دلالة وحكاية للمسموع من أصوات الطبيعة والانسان والحيوان ، لان فكرة التقاليب تنتهي بنا الى اشتراكها في المعنى العام ، ولم تشترك في المعنى العام الا لاشتراكها في الاصوات التي تتألف منها ، بقطع النظر عن ترتيبها ، فدلالة (كلم) و (كمل) و (لكم) و (مكل) و (ملك) على معنى عام مشترك ، وهو القوة والشدة ، لم تكن لتكون لولا اشتراك هذه التقليبات في الكاف واللام والميم ، وهذا هو ما كان الخليل يقصد اليه حين كان يتخذ كلمة من الكلمات أصلا يثبته في باب من (كتاب العين) ويفسرها ، فاذا انتهى أثبت تقاليبها بعدها في الباب نفسه، ليكون من مجموع التقاليب وحدة لغوية مستقلة ، كما ستجيء الاشارة اليه .

التأليف اللغوي عند الخليل

تجمعت المفردات لدى الدارسين من رواياتهم عن الاعراب في البادية ، وسماعهم من الاعراب الذين كانوا يفدون الى المربد للجلب والميرة ، وأخذهم عن علماء البادية الذين شعروا بحاجة الدارسين اليهم ، فقدموا من بواديهم ليقيموا في البصرة • كأبى مهدية الاعرابي ، والمنتجع بن نبهان ، وأبى خيرة ، وأبى الدقيش ، وغيرهم •

وشعر الدارسون بالحاجة الى تدوينها حفظا لها من الضياع • وكان التدوين أول الامر يقوم على الجمع كيفما اتفق ، فقد كان المربديون مثلا يحملون ألواحهم ليدونوا ما يسمعون من الاعراب من غير قصد الى تبويب ما يدونون ، فقد يسمعون كلمة في النبات ، وكلمة في المطر ، وكلمة في النخل ، فيدونون ذلك من غير ترتيب •

ثم دونت المفردات في رسائل أو كتب ، وأقدم ما دوّن منها ما يتعلق بالغريب ، كغريب القرآن لابى عبيدة ، وغريب القرآن لابى فيد مؤرج السدوسى صاحب الخليل ، وغريب القرآن لابى عبيد القاسم بن سلاّم ، وغيرها •

وما يتعلق بالنوادر ، كنوادر يونس بن حبيب ونوادر أبي زيد الانصاري ونوادر أبى عمرو الشيبانى ، وغيرها •

وكتب النوادر ، كتب تجمع فيها النصوص التى يكثر فيها النوادر ، وتشرح ، كنوادر أبى زيد ، أو المفردات النادرة الاستعمال كالنوادر التى أوردها أبو عبيد فى الغريب المصنف ، نحو البرت وهو الرجل الدليل ، والحرش ، وهو الاثر ، والعيقة وهى : ساحل البحر •

وظهرت رسائل صنفت فيها المفردات بحسب الموضوعات ، ككتاب الابل ، وكتاب الخيل ، وكتاب النبات ، وكتاب النخل وغيرها ، وهى كتب كثيرة ، وقد جمعت فيها المفردات التى تتعلق بموضوع واحد •

وظهرت رسائل جمعت فيها المفردات بحسب أحد أصولها ، وأمثال هذه

الرسائل كانت تسمى باسم الحرف الذى يجمع بين المفردات وينتظمها ، ككتاب الجيم لابى عمرو الشيبانى ، وكتاب الهمز لابى زيد الانصارى •

وظهرت رسائل في الاضداد ، وهى رسائل تجمع المفردات التى تستعمل كل واحدة منهاللدلالة علىّ معنى وضده ، كالجوْن للاسود والابيض ، والخلّ للسمين والمهزول ونحوهما •

ومن هذا القبيل كتاب المثلثات لقطرب ، وهو كتاب يجمع المفردات المثلثة الاوائل ، والمثلثة هى الكلمة التى يحرك أولها بالحركات الثلاث لتدل على ثلاثة معان مختلفة ، نحو : الغَمْر ، بفتح الغين ، والغمر بكسرها ، والغمر بضمها ، فالمفتوح يعنى الماء الكثير ، والمكسور يعنى الحقد ، والمضموم يعنى الرجل الجاهل ، ونحو ذلك من المفردات التى كل واحدة منها تدل على ثلاثة معان مختلفة لاختلاف حركة أولها •

رأى الخليل كل ذلك ، فلم يشارك الدارسين فيما صنفوا ، لانه لم ير هذه المصنفات على كثرتها مما يفي بالحاجة أو يحقق الغرض الذي صنفت من أجله، ولانه كان يرى أن جمع المفردات ، وتدوينها على هذا النحو لايخدم الفكرة التى دفعت الدارسين الى التدوين ، ولا يفى بالحاجة الى حفظ اللغة ، واستيعاب مفرداتها ، أو حصرها ، ثم لانه كان يرى أن هذه الرسائل لم يقم تصنيفها على أساس علمى أو منهجى مقبول •

ولابد أن يكون الخليل قد فكر في ذلك ، وأطال التفكير فيه ، فاستبعد كل ضروب التصنيف التى سبق اليها ، وأخذ يعد العدة لتصنيف أوفى وأشمل ، فهداه عقله الرياضى الكبير الى تصنيف لغوى جديد ، شأنه في ذلك شأنه في كل موضوع تناوله بالدرس ، وفي كل مسأله وقعت في متناول يده ، وقد دلت أعماله ، والخطوات التى خطاها في الدرس على أنه كان عالما من طراز خاص ، ودارساً يتمثل به نبوغ أمة ، وعبقرية جيل •

فكر الخليل في صنع كتاب في اللغة يحصر فيه لغة العرب كلها ، لاتفلت منها كلمة ، ولا يشذ منها لفظ ، وهداه عقله الفاحص اليه ، وخطا في سبيل ذلك خطوات علمية ينبنى اللاحق منها على السابق ، ويؤدى السابق منها الى اللاحق •

الخطوة الاولى :

كانت الخطوة الاولى التى خطاها لانجاز صنعه الكبير أن اعتزم تصنيفه على أساس حروف الهجاء وهى تسعة وعشرون حرفا ، وهى مادة اللغة ، وأساس بنائها ، فلابد اذن من اعادة النظر في هذه الحروف ، وترتيبها ترتيبا جديدا بحسب مواقعها من جهاز النطق الذى يبدأ بمدرجة الحلق ، وينتهى بمدرجة الشفتين ، وقد تم له ذلك ، فكانت (العين) عنده أول الحروف لانها أدخل في الحلق .

الخطوة الثانيـة :

وحين تهيأ له ذلك نظر في المفردات اللغوية التى تستمد أصول بنائها من هذه الحروف : وصنفها بحسب عدد أصولها التي تتألف منها ، فرأى أنّ « كلام العربِ مبنيّ على أربعـة اصناف ، على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسى »[1] ، ورأى أن الخماسى هو البناء الذى لم يتجاوزه اسم ولا فعل، وقال : « ليس للعرب بناء في الاسماء والافعال أكثر من خمسة أحرف فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائدة على البناء ، نحو قرعبلانة ، انما هو قرعبل ، ومثل عنكبوت ، انما هو ، عنكب »[2] .

الخطوة الثالثة :

بدأ بتخطيط الكتاب فخططه على أساس عدةّ الاصول التى تتألف منها المفردات ، وتوزعت المفردات على الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى .

أما الثنائى فما كان فيه حرفان صحيحان ، ولم يبال بالتضعيف فعق مثلا من الثنائيات ، لانها تتألف من حرفين صحيحين ، هما : العين والقاف ، ولا عبرة لتشديد القاف . وعقعق ثنائى أيضا ، لانه يتألف من العين والقاف ، ولا عبرة لتكرارهما وصيرورة الكلمة رباعية في العدّ ، لانه كان يرى أن البناء انما هو العين والقاف ، وهما الاصل ، ثم كررتا فصار البناء رباعيا ، وليس هناك قول صريح للخليل بهذا ، ولكن وضع (عقعق) في مادة (عق) يشير الى هذا .

وأما الثلاثى فما كان فيه ثلاثة أحرف ، وقد صنّفه على الثلاثي الصحيح،

---

(١) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٢ ، تهذيب اللغة ١/٤١ ، ٤٢ .

(٢)تهذيب اللغة ١/٤٢ .

والثلاثي المعتل بحرف واحد ، والثلاثي اللفيف فاما الثلاثي الصحيح فهو ماكانت حروفه الثلاثة من الصحاح •

وأما الثلاثي المعتل فهو ماكان فيه حرفان صحيحان ، وحرف واحد من حروف العلة ، نحو : عاد ووعد وعدا •

وأما الثلاثي اللفيف فهو ما كان فيه حرف صحيح واحد ، وحرفان من أحرف العلة سواء أكانا متصلين نحو : عوى ونوى أم كانا مفصولين بالصحيح، نحو : وعى ، ونى •

وانما أجمل اللفيف ولم يفصله ، لان اللفيفين جميعا ينطويان في مادة لغوية واحدة ، أو أصل واحد ، فلو أخذنا كلمة (عوى) مثلا وهي من اللفيف المقرون ، ثم استخرجت تقاليبها كان من تقاليبها : وعى ، وهو من اللفيف المفروق ، فلا حاجة به الى أن يجعل اللفيف المقرون في باب، والمفروق في باب آخر •

وأما الرباعى فما كان عدد أحرفه أربعة من الصحاح •

وأما الخماسى فما كانت أصوله الخمسة من الصحاح •

وأما المعتل ، وهو القسم الاخير فهو ما كان معتلا من الرباعى والخماسى •

الخطـوة الرابعـة :

وبعد أن وضحت أقسام المفردات بحسب عدد أصولها بدأ يصنف الكتاب على أبواب وجعل الباب الاول للمفردات المبدوءة بحرف العين التى هى أول حروف الهجاء ، وصنف هذه المفردات المبدوءة بالعين على الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى بأصنافها المختلفة ، الصحيحة والمعتلة •

وبدأ بالثنائيات فأخذ يركب العين مع ما يليها وهو الحاء ثم العين مع ما يلى الحاء وهو الهاء ، ثم العين مع ما يلى الهاء وهو الخاء ، ثم الغين مع ما يلى الخاء وهو الغين الى آخر الحروف • ولكنه لم يعقد بابا للعين والحاء ، ولا للعين والهاء ولا للعين والخاء ، ولا للعين والغين ، لان ذلك مهمل ، لم يستعمله العرب ، ولم يألفوه في أبنيتهم ، وكان السبب واضحا عنده ؛ فقد سبق أن لاحظ أن العين لا تأتلف مع الحاء ، ولا مع الهاء ، ولا مع الخاء في

أبنية الثنائيات ، وذلك لقرب المخرج ، والصوتان اذا تقارب مخرجاها تنافرا ، وخاصة اذا كانا من حيز كحيز الحلق الذى يعد أصلب الاحياز عضلا •

ولذلك كان أول الثنائيات عنده هو العين والقاف في كلمة (عق) ، وانما ائتلفا لتباعد مخرجيهما •

ولكي يحيط بجميع الثنائيات المستعملة أخذ يعالجها هى ومقلوباتها ، ولا يتأتى من الثنائى الا صورتان أو تقليبان ، فاذا انتهى من استخراج الثنائيات كلها تناول بالشرح كل ثنائى ومقلوبه على حدة ، ثم الثنائى الذى يليه ومقلوبه، وهكذا الى آخر ثنائي وهو (عمّ) الذي يأتلف من العين مع الميم الذي هو آخر الحروف من ذوات المخارج ، وهو آخر باب الثنائى الصحيح ، وكان الخليل ينبه على المهمل والمستعمل في صدور الابواب •

قال في صدر باب الثنائى الصحيح : « باب العين والحاء والهاء والخاء والغين • العين مع القاف ، وما قبله مهمل • عقّ وقعّ مستعملان »[٣] •

ثم تكلم على (عق) ، وأعقبها بالكلام على (قع) ، فاذا انتهى من باب العين مع القاف ، عقد بابا للعين مع الكاف فقال : « باب العين والكاف : عكّ ، كعّ » ، يعنى كلاهما مستعمل •

واذ انتهى من هذا الباب عقد بابا للعين مع الجيم ، وعرض فيه لعجّ وجعّ ، وهكذا الى باب العين مع الميم وهو آخر الباب •

وحين انتهى من الثنائيات بدأ بالثلاثيات المبدوءة بالعين ، وبدأ من الثلاثيات بباب الثلاثي الصحيح ، ويتكون الثلاثيّ بإضافة حرف الى كلّ من أبنية الثنائي ، ثم أخذ يقلب الثلاثيّ ، ويستخلص من كل ثلاثيّ ستة أوجه ، وذلك نحو : (عقل) وتقاليبها الستة هي :عقل ، علق ، لعق ، قلع ، لقع ، قعل ، وكلهن مستعملات •

وبدأ باب الثلاثيّ الصحيح بـ (باب العين والهاء والقاف معهما) ولم يستعمل من تقاليب هذه المادة إلاّ عهق وهقع ، لذلك لم يثبت غيرهما •

فإذ انتهى من هذا الباب عقد بابا يليه وهكذا •

---

(٣) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ١١ •

ولم يبدأ بالعين والحاء وما يثلثهما ، ولا بالعين والخاء وما يثلثهما ، لأن العين والحاء لا تأتلفان وحدهما ، ولا مع شيء من سائر الحروف ، وكذلك العين والخاء ، لا تأتلفان وحدهما ولا مع حرف آخر من حروف الهجاء (٤) .

واذ انتهى من الأبنية الثلاثية بأنواعها بدأ بالرباعيات ، ولكل بناء رباعيّ أربعة وعشرون تقليبا بضرب تقاليب الثلاثيّ الستة بأربعة ، وهو عدة حروف الرباعيّ .

وولى ذلك باب الخماسيّ ، ولكل بناء خماسيّ أربعة وعشرون ومئة تقليب هي حاصل ضرب تقاليب الرباعي بخمسة وهي عدة أحرف الخماسيّ .

وختم الكتاب بباب المعتلّ من الرباعي والخماسي ، وسمي الكتاب بهذه الأبواب كلها : كتاب العين إما لأن العين هي أول حروف الهجاء عنده فسمي الكتاب كله بالعين تغليبا ، واما لأن باب العين أوسع أبواب الكتاب وأكبرها .

بهـذا كان الخليل قد توصل الى مخطط لغويّ حاصر لكل الوجوه المحتملة رياضيا ، ومن العسير عدّ هذه الوجوه لكثرتها ، فماذا صنع الخليل بعد ذلك ؟ وماذا كان موقفه من هذه المفردات التي يعسر عدّها ، ويتعذّر حفظها ؟ .

كان الخليل عارفا بمواقع قدميه في هذا العمل الفذّ ، مدركا أن تقصىّ هذه المفردات من قبيل المحال ،وعالما أن لغة من اللغات لا يمكن أن يستعمل فيها هذا العدد الضخم من المفردات ، وأنّ أحدا من اللغويين ، ولو كان مثل الخليل ، لم يكن ليزعم أنه محيط بكل المفردات المستعملة ، ولم يدّع أنه كان ملمّا بجميع ما تكلمت به العرب في لغتها وأشعارها وأمثالها ، ولكنه كان يرمي من وراء ذلك الى تخطيط يمكّن الدارسين من استيعاب جميع المستعمل من المفردات ، بحيث لا يفلت منه لفظ ، ولا يشذّ عنه منها شيء ..

غير أن بعض المتحذلقين المدعين (٥) كان قد أساء فهم ما كان الخليـل

---

(٤) الجزء المطبوع من كتاب العين ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٥) هو احمد بن محمد البشتيّ ، سماه الأزهري فى مقدمة كتابه (تهذيب اللغـة) ، وذكر انه احد الخراسانيين الذين الفوا وجمعوا فصحّفوا ، وغيروا ، .. تهذيب اللغة ١/٣٢ .

يعنيه حين وقف على ما قاله الليث في مقدمة كتاب العين وفي مفتتحه ، فغلط في فهمه ، وقصّر في إدراك ما كان يرمي اليه .

قال الليث : « هذا ما ألّفه الخليل بن أحمد البصريّ رحمة الله عليه من حروف (ا ب ت ث) مع ما تكملت به ، فكان مدار كلام العرب ، وألفاظهم ، ولا يخرج منها عنه شيء ، وقد أراد أن تعرف به العرب أشعارها وأمثالها ومخاطباتها ، وألاّ يشذّ عنه شيء من ذلك » (٦) .

غلط البشتيّ في فهم ما قال وحاول غفلة وقلة فطنة أن ينقض ما قاله ، وزعم أنه نظر في الكتاب فلم يجد فيه كل ما تكلمت به العرب ، وراح يصنف كتابا يستدرك به على الخليل ما فاته ، ويزعم أنه استدرك عليه ضعفي ما في كتاب العين وزيادة ، وتوهم « أن الخليل لم يف بما شرط ، لأنه أهمل من كلام العرب ما وجد في لغاتهم مستعملا»(٧) .

وتصدى الأزهريّ له فقال : «ولما قرأت هذا الفصل من كتاب البشتيّ استدللت به على غفلته ،وقلة فطنته ، وضعف فهمه ، واشتففت أنه لم يفهم عن الخليل ما أراده ، ولم يفطن للذي قصده ، وإنما أراد الخليل رحمه الله أن حروف (ا ب ت ث) عليها مدار جميع كلام العرب ، وأنه لا يخرج شيء منها عنها ، فأراد بما ألّف منها معرفة جميع ما يتفرع منها إلى آخره ، ولم يرد أنه حصّل ما لفظوا به من الألفاظ على اختلافها ، ولكنه اراد أن ما أسّس ورسم بهذه الحروف ، وما بيّن من وجوه ثنائيّها وثلاثيّها ورباعيّها وخماسيها ، في سالمها ومعتلها على شرح وجوهها أولاً فأولاً حتى انتهت الحروف الى آخرها يُعْرَفُ به جميع ما هو من ألفاظهم إذا تُتُبِّع ، لا أنه تتبّعه كلّه فحصّله ، أو استوفاه فاستوعبه من غير أن فاته من الفاظهم لفظة ، ومن معانيهم للفظ الواحد معنى ، ولا يجوز أن يخفى عن الخليل ، مع ذكاء فطنته ، وثقوب فهمه أن رجلا واحدا ليس بنبيّ ، يوحى اليه ، يحيط علمه بجميع لغات العرب وألفاظها على كثرتها ، حتى لا يفوته منها شيء ، وكان الخليل أعقل من أن يظنّ هذا ويقدّره ، وانما معنى جماع كلامه ما بينّته ، فتفهمه ، ولا تغلط عليه » (٨) .

---

(٦) الجزء المطبوع من كتاب العين ، ص ١ .
(٧) تهذيب اللغة ١/٥٣ .
(٨) تهذيب اللغة ١/٥٣ .

فإذا كانت الاحاطة بما استعمل من كلام العرب لا يتأتى لدارس فادعاء الاحاطة بكل الوجوه المحتملة المتأتية من وجوه الثنائيّ ، والثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ ، وجمعها في كتاب لا يصدر عن جاهل متحذلق مدع فكيف يتوهم صدوره عن دارس مثل الخليل !!

فالخليل إذن بهذه العملية الرياضية لم يكن ليعني أن هذه الوجوه المحصلة من المفردات كلها كان مستعملا ، ولكنه كان يعني أنه يريد إلى حصر المستعمل منها ، ولم يزعم أن مايريد إلى حصره كان هو عارفا به ، حافظا له ، ولكنه كان يريد أن يخطط لكتاب يستوعب تخطيطه جميع المستعمل من كلام العرب، لا يشذّ منه شيء •

يؤيّد هذا أن الخليل كان يقول فيما قدم به لكتاب العين : « اعلم أن الكلمة الثنائية المضاعفة تتصرف على وجهين ، نحو : قدّ ودقّ ، وشدّ ودشّ • والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه تسمى مسدوسة ، وهي نحو: ضرب ، رضب ، ربض ، ضبر ، بضر ، برض • والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها ، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف ضربت في وجوه الثلاثيّ الصحيح ، وهي ستة ، فصارت أربعة وعشرين وجها ، يكتب مستعملها ويلغى مهملها ، وهي نحو عبقر يقوم منه : عبقر ، عبرق ، عقبر ، عقرب ، عرقب ، عربق ، قعرب ، قعبر ، قبعر ، قبرع ، قرعب ، قربع رعقب ، رعبق ، رقعب ، رقبع ، ربعق ، بعقر ، بعرق ، بقعر ، بقرع برعق ، برقع ، والكلمة الخماسية تتصرف على مئة وعشرين وجها ، وذلك أن حروفها ، وهي خمسة أحرف ضربت في وجوه الرباعيّ ، وهي أربعة وعشرون وجها فصارت مئة وعشرين وجها ، يستعمل أقلّه ، ويلغى أكثره »[٩] •

أكبر الظن أن تصريف المفردات ، واستخراج الوجوه على هذا النحو لابد أن يكون منبثقا عن فكرة واعية واضحة عن العملية اللغوية التي سميت بالاشتقاق ، والاشتقاق : أخذ بناء من بناء ، وقد يكون البناء المشتق جاريا على ما اشتق منه في ترتيب حروفه كاشتقاق علم ويعلم وعالم ومعلوم من مادة (ع ل م) ، فقد احتفظت هذه المشتقات بأصول المادة المشتق منها ، وحافظت على ترتيب هذه الأصول •

---

(٩) الجزء المطبوع من كتاب العين ، ص ١٠ •

وقد يكون البناء المشتق غير جار على ما اشتق منه في ترتيب الحروف ، كاشتقاق فسر ، وسفر ، ورفس ، ورسف وفرس من كلمة (سرف) ، وهذا نوع يختلف عن النوع الأول في عدم توافق المشتق منه والمشتق في ترتيب الأصول .

وأكبر الظن أيضا أن القول بوجود المناسبة الطبيعية بين اللفظ والمعنى مستفاد من ملاحظة هذه التقاليب ، أو الوجوه المستخرجة من البناء الذي اشتق منه ، لأن إنعام النظر في هذه التقاليب يوصل الدارس الى تصور هذه المناسبة الطبيعية بين الدال والمدلول .

ولابد أن يكون لدى الخليل فكرة واضحة عن هذا ، فقد صدرت عنه أقوال تشير الى وضوح الفكرة في ذهن الخليل ، كتفريقه بين صرير الجندب ، وصرصرة الأخطب ، وصليل اللجام وصلصلته ، وكتبينه العلاقة بين حركات المثال وحركات الأفعال فيما جاء على (الفعلان) محركة . ثم جمعه الكلمة والوجوه المستخرجة منها في موضع ، وبيان معانيها جملة ، ولاشك أنه كان يلاحظ توافق التقاليب في المعنى من بعض الوجوه .

إن جمع الكلمة وتقاليبها في موضع يشعر بأن الوحدة في البناء الثلاثي هو مجموعة التقاليب ، لا البناء المفترض أنه الأصل ، واذا كانت المجموعة بكاملها وحدة فلابد أنها ترتبط برابط عام ينتظمها كلها ، وهذا الرابط هو المعنى المشترك بين هذه التقاليب .

فعمل الخليل في كتاب العين وأقواله المنشورة في مصنفات الأقدمين يحملنا على أن نزعم غير مترددين أن الخليل كان رأسا لما سمّي فيما بعد بمدرسة الاشتقاق التي كان أبو علي الفارسيّ وتلميذه أبو الفتح بن جني على رأسها ، وكان يبدو أن ابن جني كان واقفا على عمل الخليل في كتاب العين ، ومع ذلك لم يتنبه ، أو لم يرد أن يتنبه الى أن عمله ، وعمل أستاذه لم يَعْدُ أن يكون شرحا لما بدأه الخليل ، أو تفصيلا لما أجمله ، ولعله لم يفهم مقصد الخليل في هذا التخطيط اللغوي العجيب ، ولكن ليس من اليسير أن نظن ذلك غير أنه لم يبّين هو ، ولا بيّن غيره السبب الذي حدا بالخليل أن يجمع الكلمة وتقاليبها في موضع على حدة في باب من أبواب كتاب العين .

وليس بمستبعد في الظن أن يكون وقوف ابن جني على كتاب العين ،

وملاحظته أبوابه ، والوحدات اللغوية التي تنتظمها الأبواب هو الذي أمدّ ابن جني بهذا النتاج اللغوي الواسع ، وهو الذي أوحى له اشتراك التقاليب في معنى عــام .

وكتاب العين ، مثل أيّ عمل أنجزه الخليل ، كان مثار اهتمام الدارسين ونقاشهم ، وكان ، كأي أثر له ، موضع اعجابهم واكبارهم ، ولكن الكتاب لم يؤلف في البصرة ، ولم يعرفه أصحاب الخليل ولا تلاميذه ، لأن الخليل كان قد خصّ به تلميذه الليث بن المظفر ، وكان هذا فيما قال ابن المعتز : « بارع الأدب ، بصيرا بالنحو والشعر والغريب » (١٠) .

ولم يظهر الكتاب في البصرة إلاّ «بأخَرة في زمان أبي حاتم ، وفي حال رئاسته ، وذلك فيما قارب الخمسين والمئتين ، لأن أبا حاتم توفي سنة خمس وخمسين ومئتين » (١١) .

وكان الكتاب منذ ظهوره في البصرة مثار نقاش في صحــة نسبته الى الخليل ، فمن الدارسين من أنكره ، ومنهم من صحح نسبته الى الخليل ، ومنهم من وقف موقفا وســطا بين هؤلاء وأولئك .

فالذين أنكروه جماعة منهم ، النضر بن شميل وأبو حاتم السجستاني .

أما النضر بن شميل فكان قد سئل عن الكتاب الذي ينسب الى الخليل ابن أحمد ، ويقال له : كتاب العين ، فأنكره ، فقيل له : لعلّه ألّفه بعدك !! فقال : أو خرجتُ من البصرة حتى دفنت الخليل » (١٢) .

غير أن الافتعال بادٍ على هذه الرواية ؛

١ ــ لأن النضر بن شميل ، وإن عاصره أبو حاتم السجستاني ، كان قد توفي سنة ٢٠٣ للهجرة (١٣) ، أو سنة أربع ومئتين (١٤) ، وكتاب العين لم يظهر إلاّ في زمن أبي حاتم ، وفي حال رئاسته ، ولم تنعقد له الرئاسة إلاّ فيما

---

(١٠) ابن المعتز ــ طبقات الشعراء ٩٧ .
(١١) المزهر ١/٨٤ .
(١٢) معجم الأدباء ٥١/١٧ .
(١٣) مراتب النحويين ٦٦ .
(١٤) فهرست ابن النديم ٧٧ ، نزهة الألباء ١١٦ .

قارب الخمسين والمئتين [١٥] ، أو سنة ثمان وأربعين ، قدم به ورّاق من خراسان [١٦] .

فإذا كان أصحاب الخليل وتلاميذه يجهلون أن يكون للخليل مثل هذا الكتاب ، ولم يظهر الكتاب في البصرة إلاّ فيما قارب سنة خمسين ومئتين ، فكيف يصح أن يسأل النضر بن شميل عنه ، وكان قد توفي سنة أربع ومئتين ؟!

٢ ـ ولأن ابن النديم وأبا البركات الأنباري كانا قد أثبتا في جملة مصنفات النضر بن شميل مصنفا اسمه : (كتاب المدخل الى كتاب العين)[١٧] .

على ان ياقوتا الذي روى ذلك عن النضر في ترجمة الليث كان قد أثبت للنضر بن شميل حين ترجم له (كتاب المدخل الى كتاب العين) [١٨] ، فإذا كان للنضر كتاب المدخل الى كتاب العين فلابد ان يكون قد وقف على كتاب العين، فكيف يتفق هذا مع انكاره اياه فيما روى ياقوت ؟! .

وأما أبو حاتم السجستانى فقد أنكره اشدّ الانكار ، ودفعه بأبلغ الدفع فيما روى أبو عليّ القالي[١٩] ، وليس مستغربا أن يكون موقف أبى حاتم من كتاب العين موقف المنكر المدافع ، لان الكتاب لم يصنع في البصرة، ولم يقع لأبي حاتم عن دراسين بصريين لأن الكتاب كان قد صنع في خراسان ،وقدم به أحد الوراقين الخراسانيين ، ولم يروه الاصمعي ولا غيره من معاصريه من الدارسين البصريين الذين أخذ عنهم أبو حاتم . ومعروف أبو حاتم بتعصبه لكل ما هو بصريّ ، وتحامله على كل ما ليس ببصريّ . وعدم معرفة أبي حاتم إياه لا يعني عدم وجوده ، لأن الكتاب ، كما قلنا ، كان قد صنع في خراسان ، وكان الخليل قد خصّ الليث به دون سائر أصحابه وتلاميذه في أثناء إقامته عنده ، ولقيّه من التكريم ما لم يلق مثله . وهناك في خراسان وضع الخليل أصول الكتاب ، ورسم منهجه ، وأملى على الليث

(١٥) المزهر ٨٤/١ .
(١٦) فهرست ابن النديم ٦٤ .
(١٧) فهرست ابن النديم ٧٧ ، نزهة الألباء ١١١ .
(١٨) معجم الأدباء ٢٤٣/١٩ .
(١٩) المزهر ٨٤/١ .

من مفرداته ما كان يحفظ ، وما شك فيه طلب اليه أن يسأل عنه ، فاذا صح له أثبته الى أن تمّ الكتاب [٢٠] .

ثم رجع الخليل إلى البصرة ، وتوفى فيها سنة خمس وسبعين للهجرة ، وبقي الكتاب مع الليث ، ولم يخرج من خراسان الاّ فيما قارب سنة خمسين ومئتين ، ولعل هذا هو السبب في عدم معرفة البصريين اياه ، وعدم سماعهم به.

أما كتاب (المدخل الى كتاب العين) الذي صنفه النضر بن شميل فيما تحدث به ابن النديم وأبو البركات وياقوت فإذا صح أن يكون النضر قد صنفه فلابد أن يكون قد صنفه في أثناء اقامته في (مرو) حيث ولي القضاء ، ولم يرجع الى البصرة ، لأنه توفى في خراسان[٢١] .

فإذا كان النضر قد صنف كتاب المدخل في فارس ، ومات في خراسان فليس بعيداً ألاّ يكون قد وصل الى علم أبى حاتم ، ولا الى علم من أخذ عنهم أبو حاتم كالأصمعيّ وغيره .

والذين أثبتوا كتاب العين ، وصححوا نسبته الى الخليل جماعة من الدارسين منهم :

أبو بكر بن دريد ، فقد قال في مقدمة (جمهرة اللغة) : « وقد ألف أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي رضوان الله عليه كتاب العين ، فأتعب من تصدّى لغايته ، وعنّى من سما الى نهايته ، فالمنصف له بالغلب معترف ، والمعاند متكلف ، وكل من بعده له تبع ، أقرّ بذلك أم جحد ، ولكنه رحمه‌الله ألفّ كتابه مشاكلا لثقوب فهمه ، وذكاء فطنته ، وحدة أذهان أهل دهره »[٢٢] .

وأبو العباس أحمد بن ولاّد في كتاب المقصور والممدود ، فيما يروى السيوطيّ ، فقد كان ينسب كتاب العين الى الخليل ، ولم يبد في كلامه ما يشير الى تشكيك في صحة نسبته اليه . قال ابن ولاّد : « لعلّ بعض من يقرأ كتابنا ينكر ابتداءنا فيه بالألف على سائر حروف المعجم ، لأنها حرف معتلّ ،

---

(٢٠) معجم الأدباء ١٧/٥٢ .
(٢١) مراتب النحويين ٦٦ .
(٢٢) جمهرة اللغة ١/٣ .

ولأن الخليل ترك الابتداء به في كتاب العين ، لأن كتاب العين لايمكن طالب الحرف منه أن يعلم موضعه من الكتاب من غير أن يقرأه إلاّ أن يكون قد نظر في التصريف ، وعرف الزائد والأصليّ والمعتل والصحيح ، والثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ ، ومراتب الحروف من الحلق واللسان والشفة ، وتصريف الكلمة على ما يمكن من وجوه تصريفها في اللفظ على وجوه الحـركات ، والحاقها ما تحتمل من الزائد ، ومواضع الزوائد بعد تصريفها بلا زيادة ، ويحتاج من هذا الى أن يعلم الطريق التي وصل الخليل منها الى حصر كلام العرب ، فإذا عرف هذه الأشياء عرف موضع ما يطلب من كتاب العين »(٢٣) .

أما الذين وقفوا موقفا وسطا فجماعة من الدارسين كانوا يرون أن خطة الكتاب ورسمه للخليل ، أما حشوه فمن الليث في رأي بعضهم ، ومن الخليل والليث جميعا في رأي بعضهم . ومن هؤلاء :

عبدالله بن المعتز ، فقد عرض لكتاب العين في أثناء عرضه لأخبار الخليل، وذكر أن الخليل صنف كتاب العين ، « ونمّقه وحبّره ، وأخرجه في أسرى ظرف ، وأحسن خط » (٢٤) . وظهر من كلامه هذا أن الخليل كان قد أتم تأليف الكتاب وخرجه على النحو الذي وصفه به إلاّ أنه روى حكاية تشبه أن تكون من صنع الخيال تتعلق باحراق كتاب العين ، أحرقته زوجته وهي ابنة عمّه ، لغيرة ملكت عليها نفسها ، وكان الخليل قد عاد الى البصرة ، وتوفي ، فسقط فى يدي الليث ، وكانت النسخة التي أحرقت هي النسخـة الوحيدة ، ولم يقع لأحد نسخة أخرى منه « فاستدرك النصف من حفظه ، وجمع على النصف الباقي علماء أهل زمانه ، فقالوا : ما تروم ؟ قال : مثّلوا عليه، فمثلوا ، فلم يلحقوه ، ولا شقوا غباره ، فأنت ترى ما في أيدي الناس من ذلك؛ فإذا تأملته تراه نصفين ، النصف الاول أتقن وأحكم ، والنصف الآخر مقصر عن ذلك » (٢٥) .

ومن هذا القبيل ما كان يراه الزبيديّ في مقدمة كتاب مختصر العين ، من « أن الكتاب لا يصح له ، ولا يثبت عنه ، وأكثر الظنّ فيه أن الخليل

---

(٢٣) المزهـر ١/٩٠ ، ٩١ .
(٢٤) طبقات الشعراء ٩٧ .
(٢٥) طبقات الشعراء ٩٨ .

سبّب أصله ، وثقف كلام العرب ، ثم هلك قبل كماله ، فتعاطى إتمامه من لا يقوم في ذلك مقامه ، فكان ذلك سبب الخلل الواقع فيه ، والخطأ الموجود فيـــه »(٢٦) .

وأبو العباس أحمد بن يحي ثعلب ، وقد روى الصوليّ عنه ، فقال : « سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : إنما وقع الغلط في كتاب العـــين ، لأن الخليل رسمه ، ولم يحشه ، ولو أن الخليل هو حشاه ما بقّى فيه شيئا ، لأن الخليل رجل لم ير مثله »(٢٧) .

وروى الأزهريّ عن أبي الفضل المنذريّ « أنه سأل أبا العباس أحمد بن يحيى عن كتاب العين ، فقال : ذاك كتاب مَلَىْ غُدَدْ ، قال : وهذا كان لفظ أبى العباس ، وحقه عند النحويين : ملآن غددا ، ولكن أبا العباس كان يخاطب عوام الناس على قدر أفهامهم . أراد : أن في كتاب العـين حروفـا كثيرة أزيلت عن صورها ومعانيها بالتصحيف ، والتغيير ، فهي فاسدة كفساد الغدد وضرّها آكلها » (٢٨) .

ويشبه هذا ما كان أبو الطيب اللغويّ يراه ، فقد ذكر أن الخليل كان قد أبدع بدائع لم يسبق اليها « فمن ذلك تأليفه كلام العرب على الحروف فى الكتاب المسمى بكتاب العين ، فإنه هو الذي رتب أبوابه ، وتوفي من قبل أن يحشوه »(٢٩) .

على أن أبا الطيب كان قد ناقض نفسه حين كان يدافع عن كتاب العين، ويردّ من كان يهاجمه من الكوفيين كالمفضل بن سلمة تلميذ ثعلب ، فقد قال في دفاعه عن كتاب العين : « ردّ أشـياء من كتاب العين ، أكثرها غـــير مردود »(٣٠) .

وأبو منصور محمد بن أحمد الأزهري أيضا ، ولكن أقواله متعارضة ينقض بعضها بعضا في نسبة الكتاب الى الخليل ، فهو إذ ينسب الكتاب الى

(٢٦) المزهـر ١/٨٢ .
(٢٧) مراتب النحويين ٣٠ .
(٢٨) تهذيب اللغة ١/٢٩ .
(٢٩) مراتب النحويين ٣٠ .
(٣٠) المزهر ١/٨٧ .

الليث ، ويزعم أنه نحل الخليل كتاب العين جملة لينفقه[٣١] • يتراجع فيقول : « ولم أر خلافا بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد ، وأن ابن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقفه إياه عن فيه ، وعلمت أنه لا يتقدم أحد" الخليل فيما أسسه ورسمه »[٣٢]

وهو إذ ينسبه الى الليث أيضا نراه يحمل على أحمد البشتي" الذي ألف" كتابا سماه التكملة ، يستدرك في زعمه ،على الخليل ما فاته ، وينقض ـ في وهمه ـ ما كان الخليل قاله من حصر كلام العرب في كتاب العين ، لأن كتابه هذا ، أعنى التكملة ، يحتوى ضعفي كتاب الخليل ، ويزيد ، ويصف الأزهري" البشتي" في بهرجته هذه بالغفلة وقلة الفطنة وضعف الفهم ، لأنه لم يفهم ما أراده الخليل ، ولم يفطن لما قصده •

فالأزهري في هذا وذاك يعترف بأن الكتاب للخليل ، وبأنه لا خلاف بين اللغويين أن التأسيس المجمل في أول كتاب العين لأبي عبدالرحمن الخليل ابن أحمد ، واذا كان التأسيس المجمل للخليل ، وأن الليث أكمل الكتاب عليه بما تلقفه من فيه ، فكيف يزعم أن الكتاب كتاب الليث ، وأن الليث نحل الخليل إياه ، لينفقه !!

يضاف الى ذلك أن الأزهري" كان قد بنى كتابه (تهذيب اللغة) على منهج كتاب العين في اتباعه ترتيب الحروف بحسب المخارج ، وفي احتذائه كتاب العين في التقليبات ، وقدم لكتابه بما كان الخليل قدم لكتابه ناقلا نقلا حرفيا أقوال الخليل والخطوات التي خطاها في رسم خطة الكتاب ، ثم جاء في مقدمته بأقوال يناقض بعضها بعضا ، فهو ينسب الكتاب الى الليث مرة ، ويثبته للخليل مرة ، ويرد على البشتي الذي زعم أنه استدرك على الخليل مافاته ، رداً عنيفا ، ويتهمه بالغفلة وقلة الفطنة ، وضعف الفهم ، لأنه لم يفهم ما كان الخليل قصد اليه ، مرة اخرى •

وقد أحسن بعض الدارسين المحدثين حين شك في سلامة القصد عند الأزهري" ، بعد أن وقف على تهافته في كلامه على كتاب العين[٣٣] •

---

(٣١) تهذيب اللغة ٢٨/١ •
(٣٢) تهذيب اللغة ٤١/١ •
(٣٣) الدكتور عبدالله درويش في الجزء الأول من كتاب العين ـ المقدمة ، وفي (المعاجم العربية) ٢٦ ـ ٢٩ •

وهناك آراء أخرى لدارسين آخرين لا تخرج عن حدود ما ذكرناه ، ومن أراد استقراء هذه الأقوال والوقوف عليها فليرجع الى ما كتبه السيوطي ، ونصّار ودرويش والشلقاني (٣٤) .

والرأي الذي نراه هو أن كتاب العين كتاب الخليل في تأسيسه وحشوه ، وأن مالاحظه قدماء الدارسين فيه من خلل أو خطأ أو تصحيف كان قد جرّه عليه تقادم الزمن ، وجهل الورّاقين ، وعدم تصدي الرواة من أصحاب الخليل وتلاميذه لروايته ومناقلته ومدارسته .

وبالرغم مما قيل فيه ، كان كتاب العين مصدر إلهام للغويين الذين جاءوا بعده ، بل كان مادة اللغويين في مصنفاتهم ، فقد كان الأزهري قد احتذى الخليل في ترتيبه ، وبنى (تهذيب اللغة على الحروف ، كما رتبها الخليل ، وأكثر من النقل منه ، وإن قال ، في سوء قصد ، إنه من كلام الليث) .

بنى أبو علي القالي كتابه (البارع) على ما جاء في كتاب العين ، بل كان (البارع) في حقيقة الأمر نسخة مصححة لكتاب العين أضيف الى مادتها نقول عن لغويين آخرين بصريين وكوفيين ، إضافة اقتضاها تأخر الزمن ، وثقافة العصر الذي عاش فيه .

وسار ابن دريد في (جمهرة اللغة) على هدى كتاب العين ، وكان مكبرا له ، ولم يخالف الخليل إلاّ في اجراء الجمهرة على الحروف المعجمة إذ كانت بالقلوب أعبق ، وفي الأسماع أنفذ(٣٥) » . وقدم ابن دريد لمعجمه بمقدمة كان بها عيالا على الخليل .

ونهج ابن سيدة في كتابه (المحكم) نهج الخليل في كتاب العين ، ولم يخالفه إلاّ مخالفة لا تكاد تذكر ، فقد عقد للثنائيّ المضاعف المعتل بابا خاصا ، جعله بعد باب ، الثنائي الصحيح ، ولم يكن في كتاب العين مثل هذا الباب ، أما الأسس والطريقة واعتماد الاشتقاق الكبير ، فكان يحذو فيها حذو الخليل .

---

(٣٤) المزهر ٧٦/١ – ٩٥ المعجم العربي ٢٤٨/١ – ٢٨٦ . كتاب العين ١/١ – ٢٧ ط العاني . رواية اللغة ١٢٠ – ١٣١ .

(٣٥) جمهرة اللغة ٣/١ .

فكتاب العين إذن بالرغم مما قيل فيه ، وبالرغم من تحامل ذوي الغرض عليه ، وبالرغم مما فعل به تقادم الزمن وعبث النساخ تصحيفا وتغييرا ، وانزوائه في فارس أكثر من ثمانين عاما .. كان ذا تأثير كبير في كتب اللغة ، وكان نقلة عظيمة نقلت التأليف في اللغة من طور السذاجة الى طور النضج والاكتمال .

واذا كان أحمد بن فارس اللغوي ، والجوهري قد اختطا لمعجميهما رسما جديدا ، ووضعا لهما أسسا جديدة فقد كان ذلك من تأثير كتاب العين أيضا ، لأنه وجّه الدارسين الى مثل هذا التأليف الناضج المكتمل ، ومنحهم النظرة المعجمية الواسعة ، التي لم تقتصر على جمع مفردات محدودة بل هدفت الى حصر كلام العرب وأشعارهم وأمثالهم في موسوعات لغوية ، وهو الهدف الذي رمى اليه الخليل في تأليف كتاب العين .

الدرس النحوي عند الخليل

دأب أصحاب الطبقات على أن يرجعوا بالدرس النحوي الى أبي الأسود الدؤلي ، ويجعلوا بين أبي الأسود والخليل بن أحمد طبقات من الدارسين النحويين ، وجعل أبو بكر الزبيدي الخليل بن أحمد في الطبقة الخامسة من طبقات النحويين واللغويين •

غير أنهم كانوا إذا ترجموا لعبدالله بن أبي اسحاق نسبوا اليه مدّ القياس والعلل ، وتكاد أقوالهم تشير الى أنه ومن كان معه في طبقته خطوا بالنحو خطوات ، يرددون لهم أقوالا في النحو هي من موضوعات النحو بمعناه الخاص ، معتمدين في ذلك على النقول المنسوبة اليهم في (الكتاب) ، وعلى روايات أخرى وصلت اليهم بطريق آخر •

وكان ينبغي لهم ألاّ يتجاوزوا هذه الطبقة ، لأنهم لم يقفوا على أقوال نحوية لرجال الطبقات التي سبقتها ، وكل ما هنالك أنّ رجال تلك الطبقات كانوا قد قاموا بأعمال قرآنية فُسّرت بأنها أعمال نحوية ، كنقط أبي الأسود المصحف نقط إعراب ، ونقط نصر إياه نقط اعجام • ونسبت اليهم أعمال نحوية لم يكن لها ما يؤيدها ، فقد زعموا أن أبا الأسود كان قد عمل باب الفاعل وباب المفعول أو شيئا من ذلك ، ولم يقفوا على أقوال نحوية لهم يمكن أن ينتظمها باب الفاعل والمفعول •

فإذا أريد أن يؤرخ للنحو ، فيما أرى ، فينبغي أن يؤرخ بهذه الطبقة، طبقة عبدالله بن أبي اسحاق (توفى سنة ١١٧ هـ) ، وعيسى بن عمر (توفى سنة ١٤٩ هـ) وأبي عمرو بن العلاء (توفى سنة ١٥٤ هـ) ، لأنها الطبقة التي قامت الدلائل على أن رجالها كانوا يتناولون بالدرس مسائل نحوية، وإن كان نحوهم لا ينتظم أبواب النحو ومسائله •

فإذا تقدم بنا الزمن قليلا رأينا الدرس النحويّ كائنا حيا يتسم بالنضج والاكتمال ، وكان النحوي الذي منحه النضج والاكتمال هو : الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي لم يشهد تاريخ الدرس النحويّ أحدا ممن عاصره يمكن أن يوضع في طبقته ، فتاريخ الدرس النحوي عند الخليل هو تاريخ

النحو العربي الذي نعرفه جملـــة وتفصيلا ، لأن أقوال الخليل وآراءه وتعليلاته وقياساته مما احتواه (الكتاب) الذي دوّن سيبويه فيه بأمانة وصدق تنتظم النحو الذي نعرفه مسائل وأصولا ، ولأن الخليل إذا قيست أعماله بأعمال من سبقه « كان هو المبدع الحقيقي لهذا العلم[1] » .

أما أعلام تلك الطبقة فقد كان لهم أقوال نحوية محدودة دلت على أن النحو المستقل عن العمل القرآنيّ قد وضحت معالمه ، وبانت حدوده ، وكان له في أذهانهم صورة لدراسة جديدة ، وكانت تلك الأقوال تمهد لظهور هذا الدرس واكتمال شخصيته .

ولم يكونوا على درجة واحدة في الدرس النحويّ ، فقد كان الخليل ابن أحمد يقدم عبدالله بن أبي اسحاق على أبي عمرو في النحو ، ويقدم أبا عمرو على عبدالله في اللغة[2] . ويبدو أن عيسى بن عمر في النحو في درجة ابن أبي اسحاق ، لأن الخليل كان قد أخذ عنه ، ولم يأخذ عن أبى عمرو .

وعبدالله بن أبي اسحاق هو الذي قيل إنه « أول من بعج النحو ، ومدّ القياس والعلل[3] » ، وهو الذي تصدى للفرزدق فلحنه في بعض أقواله ، وعابها عليه . ومما لحّنه فيه ، فيما أخبربه يونس بن حبيب ، قوله في مدح يزيد بن عبدالملك :

مستقبلين شمال الشام تضربهم ... بحاصبٍ كنديف القطن منثورِ

على عمائمنـــا تلقى وأرحلنـــا ... على زواحف تزجى مخُّهاريرُ

« قال ابن أبي اسحاق : أسأت . إنما هي (ريرُ) ، وكذلك قيـــاس النحو في هذا الموضع[3] » .

وضاق الفرزدق به فأوعده بهجاء لا ينسى ، فقال :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ... ولكن عبدالله مولى مواليا

---

(١) فايل ـ مقدمته لكتاب الانصاف ، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار .
(٢) مراتب النحويين ١٤ .
(٣) ابن سلام ـ طبقات الشعراء ١٠ .

وسار هذا البيت ، كما توقع الفرزدق ، وصار شاهدا على جواز إثبات الياء فيما كان مثل (جوارٍ) في حالة الخفض ، لأن الفرزدق أظهر اليـاء وفتحهـــا .

قال ابن سلام : قلت : ليونس : هل سمعت من ابن أبي اسحاق شيئا ؟ قال : نعم . قلت له : هل يقول أحد الصويق ، يعني السويق ؟ قال : نعم . عمرو بن تميم تقولها ، وما تريد الى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطـرد وينقاس[٤] » .

وكان عيسى بن عمر يعاصره ، وكان يخوض فيما كان ابن أبي اسحاق يخوض فيه ، وكان عيسى بن عمر يتقعر في كلامه ، ويكثر من الغريب فيه ، وله أقوال في النحو بمعناه الخاص ، عرض لبعضها سيبويه في كتابه ، وكان كابن أبي اسحاق يميل الى فتح ما اختلف فيه ، ولذلك كانا يقرءان قولـه تعالى : (ياليتنا نردُّ ولا نكذبَ بآيات ربنا ، ونكون من المؤمنين) بنصب (نكذب) و (نكون) ، وكان أبو عمرو بن العلاء يرفعهما .

وسأل ابن سلاّم سيبويه عن الوجه عنده فقال : الوجه الرفع ، وسأله عمّن نصب فقال : « سمعوا قراءة ابن أبي اسحاق فاتبعوه[٥] » .

ونسب لعيسى بن عمر كتابان في النحو ، اسم أحدهما : الاكمال ، واسم الثاني : الجامع ، وزعموا أن الخليل ذكرهما في شعر له فقال :

ذهب النحــو جميعا كلّــه — غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمـال وهــذا جامع — فهما للناس شمــس وقمر

وغلوا في هذا الزعم فقالوا : كان ســيبويه يقرأ عليه كتاب الجامع ، ولذلك أشار اليه بـ (هذا) ، وهو ما يشار به الى الحاضر ، وهي حكاية انتهت بأن قال الخليل : رحمه‌الله عيسى ، وأنشد هذين البيتين[٦] .

---

(٤) طبقات الشعراء ١١ .
(٥) طبقات الشعراء ١٣ .
(٦) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ .

وزعم ياقوت : أن المبرد قرأ أوراقا من أحد كتابي عيسى بن عمر[٧] ، غير أنه لم يذكر اسم الكتاب الذي قرأ أوراقا منه ، ولا الموضـوعات التي قرأها ، وهو خبر لم أجده عند غير ياقوت ، وكان ياقوت ينسبه الى أبي الطيب اللغوي ، ولم أجد شيئا من هذا في (مراتب النحويين) ، إلا أن يكون ياقوت يعني كتابا غير هذا لأبي الطيب ، او نسخة غير النسخة المطبوعة، وقد ذكر السيرافي وأبو البركات الأنباري أنهما لم يريا الكتابين ، ولا رأيا أحـدا رآهمـا[٨] .

وأما أبو عمرو بن العلاء فهو أحد القراء السبعة ، وأحد أعلام الرواية في اللغة والأدب ، وكان الخليل يقدمه على عبدالله في اللغة . وكان أبو عمرو من أعلم الدارسين إذ ذاك بالشعر ومذاهب العرب ، ولكنه في النحو دون معاصريه ، عبدالله بن أبي اسحاق وعيسى بن عمر ، وقد تردد اسمه في مواضع من (الكتاب) غير أن أكثر هذه المواضع في الرواية والقراءة ، ولذلك كان من الوهم ما ذكر من تلمذة الخليل له ، لأنه إذا كان قد لقيه فلم يلقه للأخذ عنه ، بل ليناظره ، وكان يومئذ شابا معتزا بما كان يحس به من ذكاء وفطنة وثقافة ، ولكن الخليل ، مع اعتزازه بما لديه من ذلك ، لم يكن مزهوا بنفسه ، ولا مغرورا بما حصل عليه ، وجلس مع صاحبه في مجلس أبي عمرو، وبقي ساكتا ، فسأله صاحبه عن سكوته ، وتغافله عن مواطن الضعف في أقواله ، فقال : « هو رئيس منذ خمسين سنة ، فخفت أن ينقطع فيفتضح في البلد[٩] » .

هؤلاء هم أعلام الطبقة النحوية الأولى الذين لقيهم الخليل ، ولكنه ، بفرط ذكائه ، وثقوب ذهنه ، وسعة عقله ، قد تخطاهم ، ونقـل الدرس النحوي نقلة لم يشهد تاريخ الدرس مثلها سرعة ورسوخا .

غير أن نوابغ الرجال وعظماءهم لا يسلمون من لؤم الأعمـار وغيظ الحساد ، وكان الخليل بن أحمد أحد هؤلاء النوابغ الذين تعرضوا لآثار

---

(٧) معجم الأدباء ١٦/١٤٧ .
(٨) اخبار النحويين البصريين ٢٥ .
(٩) نور القبس ٦٧ .

الغيرة والحسد والتعصب ، وقد ندت من بين إكبار العلماء إياه واعجابهم به أصوات مبحوحة تنم على حسد يأكل نفوس أصحابها ، وتحاول النيل من هذه الشخصية التي لمعت في تاريخ العقلية العربية الاسلامية ، وتحاول في منطق واه ، وزعم لا ينهض به دليل أن تطفيء هذه الشعلة ، أو تخفي لمعانها، ولكن الشعلة ظلت تنير الدرب للدارسين ، وانزوت تلك الاصوات فلم تكد تبعد ، وانكمشت فلم تصل الى الآذان .

وكان كتابه أو (الكتاب) الذي جمع سيبويه من ممليات الخليل أبوابه هدفا للمدعين الحاسدين ، فقد تفسوه عليه وأرسلوا مزاعمهم لتشكيك الدارسين بقيمة العمل العلمي الكبير الذي انجزه الخليل .

فقال قائل : « أرسل الخليل على كتابي فوضع كتابه عليه » . والقائل هو أبو جعفر الرواسي الذي شاءت العصبية الاقليمية أو المذهبية أن تضعه بإزاء الخليل ، وأن تقرن اسمه باسمه ، فزعمت أن له كتابا يسمى (الفيصل)، وحكت عنه أنه قال : « أرسل الي الخليل بن أحمد يطلب كتابي ، فبعثته اليه فقرأه ووضع كتابه[10] » ، وزاد السيوطي فأردف هذا بقوله : « فكل ما في كتاب سيبويه وقال الكوفي كذا فانما عنى الرواسي[11] » .

ونبحث عن كتاب الفيصل فلا نجد له أثرا ، ولا نقرأ نصا منقولا منه، ونبحث في حياة أبي جعفر العلمية فلا نعرف لها اجمالا ولا تفصيلا ، ثم نستقريء الأقوال المنقولة في الكتاب فلا نقف على قول منسوب الى هذا الكوفي ، وكل ما عرفنا أن أبا جعفر الرواسي كان قد أخذ عن أبي عمر ابن العلاء ، فيما زعم أبو الطيب اللغوي [12] ، أو عن عيسى بن عمر فيما زعم الزبيدي[13] ، وأن الكسائي كان قد أخذ عنه مباديء العربية ثم لم يجد عنده ضالته فخرج الى البصرة ، ولقي الخليل بن أحمد ، واستكثر عنه ، وتخرج به ، ولم يعد الى أبي جعفر فغاظ أبا جعفر ذلك ، فحرض الفراء ،

---

(١٠) نزهة الألباء ٢٨ .
(١١) مرآة الجنان ٣٦٧/١ .
(١٢) مراتب النحويين ٢٤ .
(١٣) طبقات النحويين واللغويين ١٣٥ .

بعد خروج الكسائي الى بغداد واقامته فيها ، أن يخرج الى بغداد أيضا ، لأنه « أميز منه[١٤] » • وخرج الفراء الى بغداد واتصل بالكسائي وجرت بينهما مسائل من مسائل الرواسي ، فأتى عليها مسألة مسألة فخطأها بما سمع من العرب ، وبما تلقى عن الخليل فأعجب به الفراء ، ورأى فيه ما لم ير في الرواسي ، ولزمه ، وانقطع عن أبي جعفر أيضا ••

وقال قائل : إن سيبويه أخذ كتاب (الجامع) ، « وبسطه ، وحشى عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نسب اليه ، وهو كتاب سيبويه المشهور[١٥] ••• ويمضي القائل فيزعم أن سيبويه كان قد تلمذ لعيسى بن عمر ، ولما فارقه ولازم الخليل سأله الخليل عن مصنفات عيسى ، فقال له سيبويه : « صنف نيفا وسبعين مصنفا في النحو ، وإن بعض أهل اليسار جمعها ، وأتت عنده عليها آفة فذهبت ، ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الاكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر « الجامع » وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى ، وأنشد :

ذهب النحو جميعا كله الخ •• فأشار بالإكمال إلى الغائب ، وبالجامع الى الحاضر »[١٦] •

ودلائل الافتعال في هذه الحكاية واضحة ، والقصد السيء فيها يعرب عن نفسه ، لأن حاكيها لم يرد من إثبات هذه الكتب لعيسى بن عمر إلا الغض من علم الخليل وإبداعه ، فلم يكن (الكتاب) في نظره كتاب الخليل ، ولكنه كتاب عيسى ، وليس للخليل فيه إلا تحشية وتعليق ، ولم تكن التحشية من عمل الخليل وحده ولكنها من عمله وعمل غيره •

والحكاية تظهر الخليل بمظهر الجاهل بما لعيسى من أعمال ومصنفات ، ولذلك أنطقت الخليل ليسأل سيبويه عن عيسى وعن مصنفاته ، وهو قلب للحقائق ، لأن صلة الخليل بعيسى كانت قبل أن يولد سيبويه ، ولم تكن سن

---

(١٤) نزهة الألباء ٦٥ .
(١٥) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ .
(١٦) وفيات الأعيان ٣/١٥٥ .

سيبويه في حياة عيسى لتسمح له بالاستكثار عنه ، ووقوفه على ما لم يقف الخليل عليه .

والحكاية تهجر فتزعم أن الخليل كان يجهل كتابي عيسى حتى أخبره سيبويه عنهما ، وتزعم أن سيبويه كان يقرأ كتاب الجامع ، ويسأل الخليل عن غوامضه ، والخليل لا يعرف عن هذا الكتاب شيئا ، لأنّ سيبويه هو الذي أخبره به ، كما زعمت الحكاية ، وهو افتئات وبهرجة لا ينبغي أن يجوز على جاهل فضلا عن دارس مثل ابن خلكان .

كان عيسى بن عمر من الشخصيات العلمية حقا ، وكان له أكثر من تخصص، كان نحويا ، وقد مرّ بنا أنه كان أحد أعلام الطبقةالأولى من النحويين، وكان قارئا ، وله باع طويلة في القراءة ، وكان لغويا .

وكان الخليل يعرف فيه هذا ، وقد لقيه ، وأخذ عنه ، كما أخذ عن غيره من معاصريه ، وكان يعظّمه ، ويشيد بعلمه ، غير أن هذا لا يعني أن الخليل عيال عليه ، أو أن كتابه ، ومملياته في النحو والتصريف واللغة كانت تحشية وتعليقا على كتاب عيسى الذي سموه بالجامع ، لأن عيسى اذا كان نحويا وقائسا ومعللا ، فانه لم يتجاوز مرحلته ، ولم يكن بالنحوي الذي يوازن بينه وبين الخليل ، لأن أقواله المتفرقة ، والتي أثبتت سيبويه بعضها في (الكتاب) لا تعبر عن مذهب نحويّ مكتمل ، ولم تزد أقوال عيسى النحوية في (الكتاب) في العدة على سبعة أقوال .

ولو كان للجامع وجود في غير أذهان الزاعمين لتحدث عنه الدارسون من أصحاب الخليل أو أصحاب سيبويه، ولو كان (الجامع) هو أساس (الكتاب) وعمدته لما كان لرواية سيبويه عن عيسى في (الكتاب) وجه .

ولكنك اذا وقفت على الكتاب ، ووقفت على ما للخليل فيه من أقوال مقترنة باسمه ، أو مشار اليها بقول سيبويه ، وسألته ، أو قال ، أو يقول من غير أن يذكر اسم المسئول أو القائل ، أو على المنهج الذي (أطّر) الكتاب ، ورسم أبوابه ، وعرض موضوعاته ، عجبت من المغفلة كيف تسد باب التفكير السليم دون بعض الدارسين المتحذلقين ، و (الكتاب) بين أيدي الدارسين ، وأقوال الخليل ما تزال تنبض بالقوة والحياة ، وتمثل عمود (الكتاب) وأساسه .

وكان الدارسون القدماء الذين وقفوا على الكتاب وتدارسوه يعرفون أن الكتاب كتابه ، والنحو نحوه ، وأسلوب التفكير فيه أسلوبه ، وطريقة العرض طريقته ، وكانوا مأخوذين بقوة منطقه ، ودقة ملاحظته ، واستيعابه ، واستيفائه موضوعات النحو ، فكان قائلهم يقول : « كان الخليل أعلم الناس بالنحو والغريب ، وأكثرهم دقائق في ذلك ، وهو أستاذ الناس وواحد عصره » (١٧) . ولو اتسع المجال لأتيت على أقوال للدارسين لم تقل في أحد غيره ، فهو الغاية ، وهو أستاذ الناس ، وهو واحد العصر ، ولم يكونوا ليستكثروا عليه أن ينعت بأجل النعوت لو أعانتهم اللغة ، وقوة البيان ، ولكنهم نعتوه بما أمكنهم أن ينعتوه به .

ومن حق الدارسين أن يعجبوا به ، وأن يكبروا عمله ، لأنه دارس ولا كالدارسين ، ولأنه في علمه وذكائه وخلقه بطل تجمعت فيه مزايا عصره ، وخصائص مجتمعه ، ونابغة تفجرت على يده عبقرية أمته .

ويقيني أن الدارسين لم يفهموه ، ولم يستطيعوا تقويم أعماله ، فقد حلّق حتى انحطّت دونه الهمم ، وجلّى حتى لم يلحق غباره ، وكان أهل كل بلد يشيدون بعلمائهم ، ويقدمونهم على من سواهم فاذا ذكر لهم الخليل تخلوا عن تكاثرهم وقالوا هو أذكى العرب ، وأعلم الناس وواحد العصر .

والعبقريّ أبدا غصة في حلوق المتحذلقين ، وقذى في عيون المبهرجين ، ونار تلتهم الأغمار ، ومن المفارقات ألّا يتصدى للنوابغ غير المتحذلقين والمبهرجين ، ولعل من الخير للعقل والعلم ألاّ يتصدى لهم غير هؤلاء ، لأن الحذلقة قصيرة الشوط ، والزيف لا يلبث أن يضمحل ، وللباطل جولة .

وأخشى ما أخشاه أن يكون كلامي هذا تجسيدا لموقف الجاحظ من الخليل ، والجاحظ مفخرة من مفاخر الأدب ، وأعجوبة من الأعاجيب ، وكتبه « تعلم العقل أولا والأدب ثانيا » كما قال ابن العميد ، ولكنه مع كل ما وصل إليه كان ينفس على الخليل أصالته وذكاءه وفطنته وإبداعه ، وكان يوازن بينه وبين نفسه ، فاذا أدرك بعد ما بينه وبين الخليل تضاءل وانكمش ، وارتد

---

(١٧) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ٩٦ .

مبهورا أمام عبقرية الخليل ونبوغه وعمق تأثيره وجلائل أعماله ، وتحوّل تضاؤله الى غيرة تأكل نفسه وحقد يعصر قلبه ، ونفث ذلك كله قولة مريضة فيها هُجْر وفيها زيف ، وكان يتحدث عن أحد المتحذلقين ويصفه بالغرور والعجب بنفسه ، وقال : « وغرّه من نفسه الذي غرّ الخليل بن أحمد حين أحسن في النحو والعروض ، فظن أنه يحسن (الكلام) وتأليف اللحون ، فكتب فيها كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما الاّ المِرّة المحترقة ، ولايؤدي الى مثل ذلك الاّ خذلان من الله تعالى »[18] .

لقد كان الجاحظ في قولته هذه مبهرجا ، وناقدا غير نزيه ، لأنه أرسل قولته إرسالا لم يؤيدها بدليل ، ولم يعززها بقرينة ، ولا دلّ قراءه على مواطن الضعف فيما جاء في كتابيه ، ومثل هذا لا يقبل من صغار الدارسين فكيف يريد الجاحظ منا أن نسلّم به ، أو نصدقه فيه ، وقد ظهر الجاحظ في بهرجته هذه حاسدا حاقدا ، ولا يتأتى مثل هذا الحسد ، ولا مثل هذا الزيف لأحد إلاّ بخذلان من الله تعالى على حد قوله .

على أن الجاحظ حين ينسى نفسه ، وتخمد نار الحسد فيها لا ينسى أن يضع الخليل في مكانه بين النوابغ ورؤساء العلم ، فقد تحدث عنه فوضعه في طبقة النظار الذين كان الجاحظ يعجب بهم ، ويجعلهم القدوة ، ويضعهم في الدرجة التي لم يبلغها أخطب الخطباء وأبلغ البلغاء ، وكان يضع الخليل مع كبار المتكلمين ورؤساء النظارين ، وكان يتحدث عنه وعنهم بأنهم هم الذين يعرفون أقدار المعاني « وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف ، وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا : العرض والجوهر ، وأيس وليس ، وفرقوا بين البطلان والتلاشي ، وذكروا الهذيّة والهُويّة والماهيّة ، وأشباه ذلك ، وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ألقابا لم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب وتلك الأوزان بتلك الأسماء ، وكما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل واشباه ذلك ، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخرم والزحاف »[19] .

(١٨) الحيوان ١/٩٢ ، ٩٣ .
(١٩) البيان والتبيين ٤٦ .

فالخليل في نظر الجاحظ هنا أحد كبار المتكلمين ورؤساء النظارين ، ولا ينسجم هذا مع قولته المنكرة التي أثبتناها من قبل ، وللدارس أن يوازن بين كلامه هنا وكلامه هناك ، كأن يحمل هناك على آراء الخليل فى الكلام ، ويجعله هنا من كبار المتكلمين ورؤساء النظارين ، ولا يفسر هذا التفاوت في القول ، والتردد في الرأي بغير ما فسرناه به .

على أن الذي عابه الجاحظ على الخليل فيما ألف في اللحون كان منطلق إعجاب المتخصصين في الغناء واللحون ، فقد روى الزبيدي أنه « لما صنع إسحاق بن ابراهيم كتابه في النغم واللحون عرضه على ابراهيم بن المهدي ، فقال : أحسنت يا أبا محمد ، فقال : بل أحسن الخليل لأنه جعل السبيل الى الاحسان » [٢٠] ولكنها الغيرة القاتلة التي تسدّ باب القول الصائب دونَ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ، ودون الجاحظ نفسه وهو أمير البيان .

لم يسلم الرجل النابغة الذي زهد في الدنيا من أذى عبيد الدنيا وطلاب سحتها ، ولم ينجه تواضعه ودماثة خلقه ، وحبه للعلم والعلماء من حسد الحساد الذين أطار الحسد رشدهم فنفسوا عليه علمه وابتكاره فان لم يجرؤ أحد منهم أن يغض من شأنه في اللغة والنحو والعروض فقد حاولوا أن يغمزوه فيما لم يكن من همّه ولا من مطلبه .

وقضى الخليل حياة حافلة بالمنجزات الضخمة والأعمال الخالدة ، وعاش عيشة كفاف ، وزهد في الدنيا ، ولم يرج مؤملا ، ولم يهن نفسه بطلب الجدوى ، ونذر نفسه للعلم حتى سهل قياده ، فكان ذروة شامخة تنحط عنها الذرى ، وفتح الزمان عينيه بعد إغماضة واذا بالبصرة أم الدنيا علما ، وإذا بالخليل عنوانها البارز ، وعالمها الفذ ، واذا بالعيون تشخص اليها ، وبالآذان تصيخ السمع الى أخبارها وأخبار نابغتها العظيم الذي ملأ دنياها علما وإبداعا وخلقا وتواضعا وزهدا « وهو في خص لا يشعر به » [٢١] .

وتعاقب الدارسون على مدارسة آرائه وأقواله ومملياته مما تضمنه (الكتاب) ومما رواه عنه دارسون آخرون أخذوا عنه ، وكان (الكتاب) مطلب العلماء وغايتهم ، وكان المبرد يقول لمن أراد أن يقرأ (الكتاب) :

---

(٢٠) طبقات النحويين واللغويين ٤٦ .

(٢١) نزهة الألباء ٩ ٥ .

« هل ركبت البحر ؟ » تعظيما له واستصعابا لما فيه [٢٢] ، وكانوا يسمونه قرآن النحو إكبارا له ، وكان الاحتجاج به إقناعا ، وتسابق العلماء الى الانتساب اليه ، فكثرت شروحه والتعليقات عليه .

وجاء العصر الحديث بمنجزاته العظيمة في العلم ، وكان العلماء والدارسون المحدثون الذين يؤرخون للحضارة والعلم يقفون عند الخليل وأعماله ومنجزاته ، ويعجبون بفكره الثاقب وعقله المبتكر ، ويظلون يتساءلون عن البيئة التي نشأ فيها الخليل ، والعوامل التي صنعت هذا الفكر المبدع وعن العصر الذي درج فيه الخليل ، ومدى استعداده لتنشئة رجل مثل الخليل ، واعداده لإنجاز مثل هذه الأعمال الكبيرة ، ويبدو أن المرحلة الحضارية في البصرة وفي غيرها من الأمصار والطور العقلي الاجتماعي لم يؤهل اذ ذاك لمثل هذه الأعمال ، ولكنها فطنة الرجل وذكاؤه ودقة ملاحظته وثقوب فكره ثم الموهبة التي تمخض عنها كل أولئك .

وهنا تتدخل الأهواء والنزعات والأغراض فتدفع بعض الدارسين إلى أن يستبعدوا أن تُنتج بيئة البصرة مثل الخليل ، ويحاولوا أن يرجعوا ذلك إلى مؤثرات خارجية وافدة عرفتها بيئة البصرة فتأثر الخليل بها فانجز ما أنجز من أعمال .

وأخذ بعض المستشرقين ومن تابعهم من الدارسين العرب يتشككون في أصالة العمل العربي ، وأتاح لهم أن يبذروا هذا التشكيك في أصالة التراث العربي الإسلامي أن ظهر في تلك البيئة وفي ذلك العصر دارسون من غير العرب ، فراحوا يعللون هذا السبق العقلي الى مثل هذه المنجزات العظيمة بتأثر الدرس العربي بالثقافات الأجنبية الوافدة وبالدارسين الفرس والهنود واليونان والسريان الذين ضمهم مجتمع البصرة ، كابن المقفع الذي زعموا « أنه يسّر للعرب الاطلاع على كل ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية » [٢٣] ، وكحنين بن اسحاق وابنه إسحاق بن حنين اللذين كانا من أكثر المترجمين نتاجا و « لابد أن كثيرا من الكتب كان يترجم بإرشادهم

---

(٢٢) أخبار النحويين البصريين ٣٩ .

(٢٣) دي بور ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام ٣٨ .

بمعونة التلاميذ والمساعدين ، وشملت ترجمتهم كل علوم ذلك الزمان » (٢٤)، وكغيرهم من الرجال الذين ينتمون الى أقوام يفوقون العرب حضارة الى درجة لا تقبل القياس ، كما زعم بارتولد (٢٥) .

وكان المصران الكبيران ؛ البصرة والكوفة مركزين نشيطين للحياة العلمية، ولم يكن بإزائهما في القرن الأول للهجرة مصر يستطيع منافستهما ، ولكل منهما ميزات كانت تجتذب إليها الأقوام الأجنبيـــة ، فالبصرة كانت مركزا تجاريا مرموقا ، وكانت ملتقى تجارة الشرق بتجارة الغرب ، وتجارة الجنوب بتجارة الشمال ، والكوفة كانت أول الأمر مركز السلطة ، ثم صارت قاعدة للخلافة بعد المدينة في خلافة علي بن أبي طالب ، فكان هذان المصران من أجل ذلك متجه الأنظار ، وقد أقام فيهما منذ تمصيرهما ناس من الهند واليونان وبلاد فارس ، والتقت فيها الحضارات ، وتلاقحت فيها الثقافات ، وكان من هذا وذاك هـــذا المجتمع الجديد الذي شهده المصران .

واتخذ هؤلاء الدارسون من ذلك منطلقا لبذر التشكيك في كل ما كان عربيا ، وزعم (بارتولد) أن علوم العقائد والفقه وضعت في هذين المصرين ، وضعها الأعاجم الذين أسلموا ، وتلاميذهم ، ولم يسلم شيء من العلوم العربية الإسلامية عنده من تأثير الأعاجم ، حتى علوم العربية التي تميّز بها هذان المصران لم يسلما عنده من تأثير أجنبيّ ، فقد زعم أنه «نشأت في كلتا المدينتين مدرسة (مذهب) للنحويين واللغويين فكانت مجادلات ومنافسات بين البصريين والكوفيين ، ولكن لم يكن أكثر هؤلاء الواضعين للعلوم العربية أيضا من العرب بل كانوا أعجاما » (٢٦) .

ولما لم يجرؤ بارتولد على توهين الأعمال الكبيرة التي أنجزها الخليل ، ولم تتوافر لديه المصادر الأجنبية التي تأثر بها الخليل راح يتوســل بأوهن الأسباب في إرجاع هذه المآثر التي قدمها الخليل للأجيال ، فاتخذ من تأليف كتاب العين في خراسان قرينة تدل على أن للأجانب تأثيرا في أعمال الخليل ،

---

(٢٤) دي بور ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام ٢٥ .
(٢٥) بارتولد ـ تاريخ الحضارة الاسلامية ٢٨ .
(٢٦) تاريخ الحضارة الاسلامية ٣٨ .

فقد قال : « ورتب الخليل بن أحمد ، وهو رئيس البصريين قاموسا (كـذا) للغة العربية ، وتعتمد الكتب العلمية ، والاصطلاحية التي ألفت في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) على كتاب الخليل (ألف الخليل كتابه المذكور في خراسان ، ويتضح من هذا القاموس (كذا) تأثير اليونان في علوم العرب »[٢٧].

وهو كلام ينضح بالتعصب على علماء العربية ، وعلى علوم العربية التي بلغت من النضج مبلغا أفقدت (بارتولد) رشده ، فالعلماء الذين كانوا اعجاما على حـدّ قوله ، لم يكونوا هم الواضعين للعلوم العربية ، ولم يكونوا إلاّ تلاميذ الخليل بن أحمد أستاذ الجيل ، ونابغة العصر ، وعبقريّ البصرة ، عنه أخذوا ، وله تلمذوا وبه تخرجوا وإليه ينسب ما كان لهم من علم .

أما كتاب العين الذي ابتدع الخليل رسمه وتخطيطه فلم يكن للبيئـة الفارسية تأثير فيه ولم يتضح لليونان أثر في تخطيطه أو تنظيمه أو وضعه ، واذا كان لليونان تأثير في وضع كتاب العين ، كما زعم بارتولد ، فلابد أن يكون قد وقف على مثل هذا المعجم لليونان وليس هناك من قرينة تدل على أنه كان وقف هو أو غيره على مثله عند اليونان ، ولماذا انفرد الخليل وحده بوقوفـه على آثار اليونان ، أو غيرهم ؟ ولماذا لم يقف على كتب اليـونان دارسون آخرون عاصروا الخليل وصاحبوه ؟

ولكنه التعصب الحاقد ، كان قد أملى على بارتولد وأمثاله أن يرسل الكلام على عواهنه ، ويسوق المزاعم جزافا ، وذلك أمر يغض من قيمة البحث والباحث ، وإذا كان بارتولد مندفعا بتأثير التعصب فما بال الدارسين العرب راحوا يتابعون بوعي وبغير وعي !! .

أمّا ابن المقفع الذي زعم (دي بور) أنه كان في أول الأمر صديقا للخليل ابن أحمد ، ويسّر للعرب الاطلاع على كل ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية ، فلا أظن أن له تأثيرا في الخليل ، لأنه لم يكن ملازما للخليل ولا صـديقا له ، ولم يذكر الذين أرخـوا للخليل ولابن المقفع أنهما كانا متصادقين أو متلازمين ، وكل ما ذكروه أن ابن المقفع كان يود أن يجتمع الى الخليل ، وقد هيّأ له هذا الاجتماع بعض أصحاب الخليل « فتذاكرا ليلة

(٢٧) تاريخ الحضارة الاسلامية ٣٨ ، ٣٩ .

تامة ، فلما افترقا سئل ابن المقفع عن الخليل فقال : رأيت رجلا عقله أكثر من علمه ، وقيل للخليل : كيف رأيت ابن المقفع ؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله » [٢٨] . وهو خبر اذا دلّ على شيء فأنما يدل على أن ابن المقفع لم يكن صديقا للخليل ، فلو كان صديقا له لما احتاج الى وسيط يهيء له الاتصال به .

واذا أغضينا النظر عن ذلك ، ورحنا نلتمس سبلا أخرى أتاح ابن المقفع للعرب بها أن يطلعوا على ما كان في اللغة الفهلوية من أبحاث لغوية ومنطقية، فان ما يصحّ التمسّك به في تأثير ابن المقفع في الخليل وغيره هو ما قيل من أنه كان قد ترجم منطق أرسطو الى العربية ، ولابد أن الدارسين العرب، أو الخليل بن أحمد قد وقفوا عليه ، فأفادوا منه أصولا ومسائل . ولكنّ حكاية ترجمته منطق أرسطو الى العربية حكاية لم يثبت صدقها ، فقد أثبت الأستاذ پول كراوس أن الذي ترجم منطق أرسطو هو محمد بن عبدالله بن المقفع ، لا ابن المقفع نفسه ، وعلى هذا يكون مذهب الخليل فى النحو قد رسمت حدوده ، وبانت معالمه قبل ظهور هذه الترجمة ودون أن يتأثر بها ، لأن منطق أرسطو لم يترجم الى العربية في حياة الخليل .

يؤيدنا في هذا ما ذهب اليه بعض الباحثين من المستشرقين ، فقد ذهب الى أن النحو العربيّ أثر من آثار العقل العربيّ ، وأن العرب « قد ابتدعوا علم النحو في الابتداء ، وأنه لا يوجد في كتاب سيبويه إلا ما اخترعه هو والذين تقدموه » [٢٩] .

وأما حنين بن اسحاق فعلم من أعلام الترجمة ، وكان هو وابنه أوفر المترجمين نتاجا وقد ترجما من اليونانية الى العربية كثيرا من الكتب وشملت ترجمتهما كل علوم ذلك الزمان .

ومن أجل ماكان يتمتع به حنين من بعد الصيت ، وما كان يعرف به من نشاط ، وما كان له من جهود في الترجمة ، ومن صلة وثيقة بكتب أرسطو ،

---

(٢٨) طبقات النحويين واللغويين ٤٥ .
(٢٩) هذا راي للأستاذ ليتمان املاه على تلاميذه فى قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة . الخليل بن احمد ٦٩ .

وما كان للدارسين اذ ذاك من عناية خاصة بمنطق أرسطو ، واعجاب بشخصية أرسطو أتيح للمتعصبين أن ينسبوا كل مأثرة علمية الى أرسطو ، سواء كانت له حقا أم كانت منسوبة إليه .

وكانت أعمال الخليل من هذه المآثر التي تقوّل فيها المتقولون ، واستعظموا أن يكون مثل هذه الأعمال من ابتداعه ، فلابد أن يكون متأثرا بما اطلع عليه من علوم اليونان ومنطق أرسطو خاصة ، واذا انتفى أن يكون ابن المقفع هو صلة تأثير أرسطو في الخليل فلابد أن يكون حنين بن اسحاق حلقة الاتصال للعلم الأرسطي بالعلم العربيّ ، وكان الذين تولوا هذا الأمر هذه المرة هم الدارسون العرب .

وأسبق القائلين بتأثر الخليل بحنين بن اسحاق ، فيما أعلم ، هو المرحوم الأستاذ أحمد أمين ، فقد قال في (ضحى الإسلام) :«إن حنينا ذهب الى بلاد الروم ، وأجاد تعلم اليونانية ، ثم عاد الى البصرة ، ولازم الخليل بن أحمد ، وأخذ عنه العربية ، ويروون أنه حمل كتاب العين المنسوب للخليل الى بغداد » (٣٠) .

وتابعه الدكتور ابراهيم بيّومي مدكور في المقالة التي قدمها الى مؤتمر مجمع اللغة العربية الذي انعقد سنة ١٩٤٨/١٩٤٩ م ، وكان موضوعها (منطق أرسطو والنحو العربي) ، وقد ذهب فيها الى تأثر النحو العربيّ بما جاء على لسان أرسطو في كتبه المنطقية من قواعد نحوية ، وأن من مظاهر هذا التأثر أن أريد بالقياس النحويّ أن يحدد ويوضع على نحو ما حدّد القياس المنطقيّ » ، وكان سبيل النحو العربيّ الى أن يتأثر بمنطق أرسطو صلة المترجمين وبعض الدارسين الأجانب بالعرب ونحاتهم والعيش معهم ، وسمى من هؤلاء المترجمين يعقوب الرهاويّ الذي كان له شأن في وضع النحو السريانيّ ، وحنين بن اسحاق الذي كان ، فيما زعم الدكتور (مدكور) ، معاصرا للخليل وسيبويه ، بل صديقا للخليل « وقد تعلم العربية في سنّ متقدمة ، وعانى منها ماعانى ، ومن اليسير أن نتصور أنه قد تبادل فيما تبادل مع الخليل بعض القواعد النحوية » .

---

(٣٠) ضحى الاسلام ٢٩٨/١ ، ٢٩٩ ط الثالثة .

وتابعهما الأستاذ مصطفى نظيف عضو مجمع اللغة العربية ، فذهب الى أن الخليل كان قد تأثر بالعلوم المنقولة عن اليونان ، وأن من الثابت عنده أن الخليل كان متصلا بحنين بن اسحاق ، وأن حنينا تعلم العربية على الخليل [٣١] .

ولابد لنا من الوقوف عند هذه المزاعم ومحاكمتها واستخلاص ما يمكن الاعتماد عليه في تأييد هذه الفكرة أو نقضها . إنّ ما زعمه هؤلاء الدارسون لا يمكن الاطمئنان اليه ، لأن أهم النقاط التي اتفقوا عليها ، واستندوا اليها هو اتصال حنين بالخليل ، وتعلمه العربية عليه ، وتبادله مع الخليل بعض القواعد النحوية ، لأن اتصال حنين بالخليل ، وتعلمه العربية عليه ، وتبادله معه بعض القواعد النحوية لا يمكن أن يكون قد وقع ، ولا وجود له إلاّ في أوهامهم لأن حنينا لم يولد إلاّ بعد وفاة الخليل بنحو تسعة عشر عاما ، لأن الخليل كان قد توفي سنة ١٧٥ للهجرة ، وحنينا كان قد ولد سنة ١٩٤ للهجرة ، فكيف جاز على هؤلاء الدارسين أن يكون حنين قد تلمذ للخليل ، بل تلمذ له على كبر !!

والعجيب أن يذهب صاحب ضحى الإسلام الى هذا وكان قد نص في الجزء الاول من ضحى الإسلام على أنّ حنينا ولد سنة ١٩٤ للهجرة ومات سنة ٢٦٤ بعد أن عمّر نحو سبعين عاما ، ونصّ في الجزء الثاني منه على أن الخليل ولد في سنة ١٠٠ للهجرة ، ومات في سنة ١٧٥ للهجرة [٣٢] .

أكبر الظن أن الذي أوقع هؤلاء الدارسين في مثل هذا الوهم هو ما تلقفوه من وهم وقع فيه بعض القدماء ، ولعل أقدم من وقع في هذا الوهم من القدماء هو أبو داود سليمان بن حسان الأندلسيّ المعروف بابن جلجل (توفي سنة ٣٨٤ هـ) في كتابه : (طبقات الأطباء والحكماء) ، فقد ذكر في ترجمته لحنين بن اسحاق أنه كان « عالما بلسان العرب ، فصيحا باللسان اليونانيّ جدا بارعا في اللسانين بلاغة بلغ بها تمييز علل اللسانين ،

---

(٣١) محضر الجلسة السابعة في دور انعقاد مؤتمر المجمع ١٩٤٨/١٩٤٩ م .
(٣٢) ضحى الاسلام ٢٩٨/١ ، ٢٩٩ ط الثالثة .
(٣٣) ضحى الاسلام ٢٧٠/٢ .

ونهض من بغداد الى فارس ، وكان الخليل بن أحمد النحوي رحمه الله بأرض فارس ، فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب ، وأدخل كتاب العين بغداد ، ثم اختير للترجمة واؤتمن عليها » [٣٤] .

وقد وهم ابن جلجل في إيراده هذا الخبر العجيب الذي لم يتنبه الى ما فيه من تخليط ، ثم وقع في الوهم نفسه من ترجم لحنين بعد ابن جلجل ، فنقلوا هذا الخبر عنه .

وممن وقع في الوهم من هؤلاء :

جمال الدين القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ للهجرة ، فقد نقل الخبر عن ابن جلجل نقلا يكاد يكون نصًا من دون أن يشير الى المنقول عنه [٣٥] .

وموفق الدين أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ للهجرة ، ولكنه نسب الخبر الى سليمان بن حسان وهو ابن جلجل ، ونقله بنصه بلا تغيير [٣٦] .

ثم نقل المحدثون هذا الخبر ، وتلقفوه على أنه الخبر اليقين ، وراح الدكتور (مدكور) يزعم في ثقة : أن حنينا كان معاصرا للخليل وسيبويه ، بل صديقا للخليل ، وقد تعلم العربية في سن متقدمة .

وردد مصطفى نظيف زعم الدكتـور (مدكور) ، وزعم أنه ثابت أن الخليل كان متصلا بحنين بن اسحاق ، وأن حنينا تعلم العربية على الخليل .

ولم يتأثر الدكتور (مدكور) في بحثه هذا بما وقف عليه عند القفطي وابن أبي أصيبعة فحسب بل تأثر بمزاعم بعض دارسي الفلسفة من الغربيين ، وأخص منهم (دي بور) فقد كان في بحثه هذا ينظر الى ما جاء في كلامـه على تأثر علم النحو بالمنطق في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) فقد كان (دي بور) يزعم أن « سبق أهل البصرة الى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية ظهر في البصرة قبل ظهوره في غيرهـا ،

(٣٤) طبقات الأطباء والحكماء ـ ابن جلجل ٦٨ ، ٦٩ .
(٣٥) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ١١٨ مطبعة السعادة .
(٣٦) عيون الأنباء ١/١٨٤ .

وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية لكي تؤثر في مذاهبهم الكلامية » (٣٧) •

ولم يخرج الدكتور (مدكور) في بحثه هذا عن الحدود التي رسمها (دي بور) ، فقال : « وقد استخرج الفقهاء كثيرا من المصطلحات المنطقية في بحوثهم الأصولية ، فتحدثوا عن الجنس والنوع ، والكلى والجزئي ، والعام والخاص ، واعتبروا القياس أصلا من أصول التشريع الأربعة ، ورسموا قواعده ، ونظموا طرقه محاكين صنيع أرسطو في قياسه المنطقي ٠٠٠٠ ولم يقف الأمر ــ فيما نعتقد عند الفقه والكلام والفلسفة ، بل امتد الى دراسات أخرى من بينها النحو ، وقد أثر فيه المنطق الأرسطي من جانبين : أحدهما موضوعي ، والآخر منهجي » (٣٨) •

لعل لقوليهما وجها اذا كانا يعنيان النحاة المتأخرين ، وخاصة نحاة القرن الرابع الذين مهدوا السبيل لتأثر النحو بالمنطق والفلسفة ، فاستعاروا للنحو كثيرا من مصطلحات المنطق ، واتخذوا القياس والتعليل من أصول الدرس النحوي •

أما أن يقال هذا في الدرس النحوي منذ نشأته ، وعلى يد الخليل ، فهذا ما لا وجه له ، ولا دليل ينهض به ، وقد سبق ، ابطال الزعم بتأثر الخليل بمنطق أرسطو ، أو بتأثر النحو العربي به عند نشأته وظهوره •

بعد هذا لا نريد أن نعرض للدرس النحوي عند الخليل بالتفصيل فذلك مما لا يسعه هذا المجال المحدود ، ومما لا جدوى فيه ، لأن ما نعرفه الآن من أصول الدرس وموضوعاته هو ما كان الخليل قدمه للدرس جملة وتفصيلا ، وهو مما تضمنه (الكتاب) الذي هو مما أملّه الخليل، وحفظه سيبويه ولم يضف النحاة المتأخرون الى ما جاء في الكتاب شيئا ذا بال ، فقد اقتصرت أعمال النحاة المتأخرين على تفصيل مجمله ، وشرح مفصله ، واختصار شروحه ، وشروح مختصراته ، وأخذ الخلف منهم يردد ما قاله السلف ، وضاع النحو أو كاد في

---

(٣٧) تاريخ الفلسفة في الاسلام ٣٨ •

(٣٨) البحث الذي قدمه الدكتور (مدكور) الى مؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٤٨/١٩٤٩ •

زحمة هذه الشروح والمتون ، وصارت القدرة على القياس والتعليل والتخريج والتأويل مقياس التبحر في العلم ، وذهبت حيوية الدرس في غمرة هذه التعليلات والتأويلات .

فالدرس النحوي عند الخليل اذن هـو الذي عرفته العصور المتعاقبة ، فلو تتبعنا النحاة سلفا عن سـلف لرأيناهم يصدرون عن مورد واحد هـو (الكتاب) ، والكتاب هـو كتاب الخليل في جملته وتفصيله ، وعنه أخـذ أعلام الدرس ، وأئمـة النحاة ، وعن مجلس الخليل نشأ المذهبان النحويان الكبيران مذهب البصريين ومذهب الكوفيين ، فقد تخرج بالخليل امام أهل البصرة وإمام أهل الكوفة ، واذا اختلف المذهبان في المسائل والفروع فقد اتفقا في الخطوط العريضة التي يتألف منها نحو الخليل .

درس الخليل العربية من حيث يجب أن تدرس. بدأ بدراسة الصوت اللغوي ، وما يترتب على تآلف الأصـوات من ظواهر لغويـة كالإدغام والإبدال والإعلال ، وفسّر ذلك كله ، ووضع الأسماء بإزاء المسميات .

ثم درس الكلمة من حيث بنيتها ، ومن حيث زنتها ، ومن حيث عدة أصولها ، ومن حيث صحتها واعتلالها ، ودرس ما يعرض للكلمة من إضافـة (نسب) ، أو تصغير ، وما يعرض للكلمة في تثنيتها وجمعها ، وأبنية الجموع ، وأبنية المصادر ودلالاتها ، وما يعرض للكلمة من تركيب أو نحت .

ثم درس الكلمة مؤلفة في جملة ، وهو موضوع الدرس النحوي الخالص ، فدرس الجملة وأنواعها ، وعلاقـة الكلمات بعضها ببعض في ثنايا الجملة ، وبسط المعاني الإعرابية ، والعلامات الدالة عليها ، والمؤثرات التي تؤثر في الكلمات حين تتجاور في الكلام .

وكان في كل ذلك شارحا ومفسرا ، وقائسا ومعللا ومتأولا ، وكان في قياسه وتعليله وتأويله صادرا عن فهم عميق للغة ، وفقه واع لأسـاليبها في الاسـتعمال .

وكان الدارسون يعجبون بسعة اطلاعه ، وطول تتبعه ، ودقة ملاحظته ، وثقوب فطنته وحذقه في الاستدلال والاستنباط ، حتى كان يونس بن حبيب يقول : كان الخليل بن أحمد « يستدل بالعربية على سائر اللغات ذكاء منه وفطنة »[٣٨] . وحتى أجمع الدارسون المعاصروه أنه « كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانا ، وكانوا لايبالون إذا أخذوا عنه خبرا ، أو أنشدهم شعرا ألا يسمعوه من صاحبه » ، ثقة به .

---

(٣٨) * ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ٩٧ .
(٣٩) ابن سلام ـ طبقات الشعراء .

علم العروض

تروي كتب الطبقات أن للخليل كتابا في النغم ، ويتحدث ابن المعتز عن كتاب الخليل في اللحون بأنه كتاب معروف ، ويبدو أن معرفته الموسيقى مما لا يحتمل الجدل ، فإذا لم يصل إلينا كتابه في اللحون فقد وصل الينا علمه بالعروض وعلم العروض هو علم موسيقى الشعر .

وعلم العروض علم انفرد به الخليل ، فلم ينسب الى غيره ، ولم يشاركه أحد في وضعه ، وهو علم أوزان الشعر العربيّ منذ الجاهلية الى عصر الخليل .

تناول الخليل الشعر العربيّ بالدرس ، فرأى أن أوزانه ستة عشر وزنا سماها بحورا ، وقد وضع لكل بحر اسما خاصا يميزه من غيره ، والبحور الستة عشر هي : الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل والهزج والرجز والرمل والسريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث والمتقارب والخبب .

وقد استنبط الخليل هذه البحور من خمس دوائر :

١ ـ دائرة المختلف ، وفيها : الطويل والمديد والبسيط .

٢ ـ ودائرة المؤتلف ، وفيها : الوافر والكامل .

٣ ـ ودائرة المشتبه ، وفيها : الهزج والرجز والرمل .

٤ ـ ودائرة المجتلب ، وفيها : السريع والمنسرح والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتثّ .

٥ ـ ودائرة المتفق ، وفيها : المتقارب والخبب .

فهذه ستة عشر بحرا هي البحور المستعملة في الشعر العربيّ الى عصر الخليل .

وقد استطاع الخليل أن يحصر هذه الأوزان المستعملة حصرا ، ولم يفلت منه وزن ، وليست هذه الأوزان هي كل ما أمكنه استنباطه من الدوائر الخمس ، ففي هذه الدوائر من الأوزان أكثر من هذا العدد ، إلآ أنها لم تستعمل أو لم تصح عنده ، ولم يرد فيها شعر يوثق به .

ورأى أن وحدة الوزن هـو البيت ، وأن البيت شطران ، صدر وعجز ، وأن كل بيت يتألف من أجزاء هي التفعيـلات أو الأفاعيـل ، فإذا استوفى البيت تفعيلاته كلها سميّ تاما ، وإذا نقص منه جزء سمي مجزوءا •

وتعرض للتفعيلات في أثناء البيت عوارض من زيادة أو نقص أو حركة أو سكون ، وقدَ اسـتقصاها ، فسمى بعضها زحافات وبعضها عللا ، وميّز بعضها من بعض بأسماء وضعها لها :

كالقبض مثلا لحذف الساكن الخامس ، مثل (مفاعيلن) تقبض بحذف الساكن الخامس فتصير : (مفاعلن) •

وكالحذف لحذف السـبب الأخير من (مفاعيلن) ، فتصير (مفاعي) وتحوّل الى (فعولن) •

الى غير ذلك من زحافات وعلل لا مجال لتفصيل الكلام فيها •

والتفعيلات عنده تنبني على أجزاء ، هي : السبب والوتد والفاصلة •

أمـا السـبب فنوعان :

سبب خفيف ، وهو يتألف من متحرك وساكن مثل : مِنْ و في •

وسبب ثقيل ، وهو يتألف من متحركين مثل : لَكَ ، وبِكَ •

أما الوتد فنوعان :

وتد مجموع وهو مايتألف من حرفين متحركين بعدهما ساكن ، مثل : بلى • على •

ووتد مفروق وهو ما يتألف من حرفين متحركين بينهما ساكن ، مثل : أَنْتَ • لَيْتَ •

وأما الفاصلة فنوعان :

فاصـلة صـغرى ، وهي ثلاثة أحرف متحركة بعدها سـاكن مثل : عَرَفَا • ذهبـا •

وفاصلة كبرى ، وهي أربعة أحرف متحركة ، مثل أَجِدُكَ • عَرَفَكَ •

أما المصطلحات التي تضمنتها دراسة العروض فكلها من وضع الخليل وتلقيبه ، فهو الذي سمى الأوزان بأسمائها ، ووضع للتفعيلات وأجزائها وعللها وزحافاتها ألقابا كالقبض والكفّ والخرم والثلم والجزء والخبن وغيرها .

يؤيد ذلك ما رواه المرزباني ، روى أن الأخفش سأله : « لم سميت الطويل طويلا : قال : لأنه تمت أجزاؤه . قال فالبسيط ؟ قال : لأنه انبسط عن مدى الطويل ، قال : فالمديد ؛ قال : لتمدد سباعيّه حول خماسيّه ، قال : فالوافر ؛ قال : لوفارة الأجزاء وتدا بوتد ، قال : فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع في غيره ، قال : فالرجز ؟ قال لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة الرجزاء قال : فالرمل ؟ قال لأنه يشبه رمل الحصير بضم بعضه الى بعض . قال : فالهزج ؟ قال : لأنه يضطرب شبه هزج الصوت ، قال : فالسريع ؟ قال : لأنه يسرع على اللسان ، قال : فالمنسرح ؟ قال : لا نسراحه وسهولته ، قال : فالخفيف ؟ قال : لأنه أخف السباعيات، قال :والمقتضب؟ قال: لأنه اقتضب من الشعر لقلته ، قال : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضارع المقتضب ، قال : فالمجتث ؟ قال : لأنه اجتث ، أي : قطع من طول دائرته ، قال فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أجزائه ، وإنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضا » (١) .

وقد مر بنا أيضا ما تحدث به الجاحظ عن الخليل وعن وضعه المصطلحات لأوزان القصيد وقصار الأرجاز ، ووضعه الأسماء للأعاريض والأوزان ، كالطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل واشباه ذلك (٢) .

وروى المرزباني أيضا أن الخليل قال : « رتبت البيت من الشعر ترتيب البيت من بيوت العرب الشَّعَر ـ يريد الخباء ـ قال : فسميت الإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة ، كقول النابغة :

(عجلان ذا زاد وغير مزدود) ،

ثم قال :

(وبذاك خبرنا الغراب الأسودُ)

قال : فيروى أن النابغة فهم ذلك فغيّره ، قال : وإنما سميته اقواء لتخالفه، لأن

---

(١) نور القبس ٧١ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٥٣ .

العرب تقول : أقوى الفاتل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى ، قال : وسميت تغير ما قبل حرف الروى سنادا من مساندة بيت الى بيت اذا كان كل واحد منهما ملقى على صاحبه ، ليس مستويا هكذا ، ومثل ذلك من الشعر :

(فاملئى وجهك الجميل خموشا)

ثم قال :

(وبنا سُميت قريش قريشا) ،

قال : والاكفاء ما اضطرب حرف رويه فجاء مرة نونا ، ومرة ميما ، ومرة لاما ، وتفعل العرب ذلك لقرب مخرج اللام من النون ، مثل قوله :

بنات وطاءٍ على خدّ الليْل ... لا يشتكين ألماً ما أنقَيْن

مأخوذ من قولهم : بيت مكفأ اذا اختلفت شقاقه التي في مؤخره ، والكفأة : الشقة في مؤخر البيت ، والايطاء ردّ القافية مرتين كقوله :

وتخزيك يا ابن القين أيام دارم

وقال فيها :

وعمرو بن عمرٍو إذ دعا يالدارم »(٣)

أما أجزاء التفعيلة ، من سبب ووتد وفاصلة فهي من جنس تسمية بيت الشعر بالبيت ، لأن الأسباب والأوتاد من لوازم الخباء ، وهي كذلك من أجزاء التفعيلات التى يقوم عليها بيت الشعر .

ويبدو أن هذه الأجزاء كان قد استخدمها الخليل مصطلحات لأصول الألحان في كتابه (النغم) أو (النغم واللحون) الذى قال ابن المعتز إنه كتاب معروف (٤) .

ولا نعرف عن هذا الكتاب شيئا ، ولكنه كان معروفا عند الدارسين المعنيين بالموسيقى والنغم ، ولعله كان مصدر إسحاق بن ابراهيم في كتابه الذي ألفه في اللحون ، والذي عرضه على ابراهيم بن المهدي فاستحسنه ، فقال اسحاق بل أحسن الخليل ، لأنه جعل السبيل الى الإحسان ..

---

(٣) المرزباني ـ الموشح ٢١ .

(٤) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ٩٦ . فهرست ابن النديم ٦٥ . انباه الرواه ٣٤٦/١ . مرآة الجنان ٣٦٧/١ . معجم الأدباء ٧٥/١١ . وفيات الأعيان ١٧/٢ .

غير أن كتب اللحون التي صنعت بعد الخليل ، والدراسات التي دونت في كتب القدماء تشير الى أن الخليل كان قد استخدم هذه المصطلحات لأصول الألحان ، لأن أسماء هذه الأصول هي الأسماء التي كان الخليل قد وضعها لأجزاء التفعيلات ، والكمّ الذي يدل عليه السبب الموسيقي هو الكم الذي يدل عليه السبب العروضي •

يذكر القدماء أن أصول الألحان في الموسيقى العربية القديمة ثلاثة : السبب ، والوتد ، والفاصلة •

والسبب في الالحان : نقرة متحركة يتلوها سكون ، كقولك : تُنْ ، تُنْ •

والوتد فيها : نقرتان متحركتان يتلوهما سكون ، كقولك : تَنُنْ • تَنُنْ •

والفاصلة فيها : ثلاث نقرات متحركة يتلوها سكون ، كقولك تتنن • تَتَنُنْ [٥] •

وهذه الأصول هي الأصول العروضية أسماء ومقدارا ، ومن هذه الأصول تركيب الألحان •

ويبدو مما تقدم أن الخليل كان له شأن كبير عند القدماء المعنيين باللحون، فقد مر بنا مقالة اسحاق بن ابراهيم فيه ، وكان أشهر علماء عصره في هذا الفن ، وأول من صنف في الموسيقى ، وصنع فيها كتاب النغم ، وكتاب الإيقاع [٦] •

واشار (فارمر) في كتابه (تاريخ الموسيقى العربية) الى منزلة الخليل، وإحسانه في هذا الفن ، فقال « وربما كان الخليل بن أحمد (٧١٨-٧٩١) ، وهو من أشهر علماء مدرسة البصرة اللغوية العربية ، العالم الموسيقىّ العظيم الوحيد في عصره » [٧] •

وأكبر الظن أن معرفة الخليل بالموسيقى هي التي هدته الى اختراع علم العروض ، لأن علم العروض هو علم موسيقى الشعر ، وقد أصاب

(٥) رسائل اخوان الصفاء ١/١٩٨ •
(٦) فهرست ابن النديم ٦٥ •
(٧) هنري جورج فارمر ـ تاريخ الموسيقى العربية ١٤٨ •

ياقوت واليافعيّ حين لمحا علاقة العروض بالنغم والإيقاع ، ففسرا بذلك إحداث الخليل العروض .

قال ياقوت : « وكانت معرفته بالإيقاع هو الذي أحدث له علم العروض » [٨] .

وقال اليافعي : « وله معرفة بالإيقاع والنغم ، وتلك المعرفة أحدثت له علم العروض ، فانهما متقاربان في المأخذ » [٩] .

أما أنه اخترعه من ممرّ له بالصفّارين من وقع مطرقة على طست ، كما زعم حمزة بن الحسين الأصفهانيّ [١٠] أو أنه فكّر فيه « لأنه مرّ في سكة القصارين بالبصرة ، فسمع من وقع الكَدين [مدقات القصارين] أصواتا مختلفة » [١١] كما سبق لابن المعتز أن قال ، فأمر يضعب تصديقه أو الاطمئنان إليه .

واذا ثبت أنه كان يعرف الإيقاع والنغم ، وعُرِفَ ما لعقله الرياضيّ الكبير من دقة في فحص ما يتناوله بالدرس ، وإحاطة بالوجوه المحتملة ، وتقصّ لجوانب الموضوع المبحوث فيه فقد اهتدى الى طريقة يحصر بها أوزان الشعر المحتملة ، ما استعمل منه وما أهمل ، كما فعل في كتاب العين حين رمى الى حصر كلام العرب باصطناعه تقليب اللفظ الى وجوهه المحتملة من الثنائيّ والثلاثيّ والرباعيّ والخماسيّ .. وتلك الطريقة هي تصوّره الدوائر ، وبناؤها على أصول البحور ، وهي البحور التي يكثر قول الشعر عليها ، واصطناعه طريقة الفك . ويعني (الفكّ) أن تفك التفعيلات أجزاء ، وأجزاء التفعيلات هي الأسباب والأوتاد .

فإذا كان (الطويل) هو أصل الدائرة الأولى ، وأساسها فطريقة استخراج البحور بطريقة الفك تجري على النحو الآتي :

يبدأ الأصل من (فعولن) الأولى ، فإذا أردت أن تستخرج بحرا منه فاترك الجزء الأول منها وهو الوتد : (فعو) ، واجعل بداية البحر الجديد

---

(٨)
(٩) معجم الأدباء ١١/٧٣ ، ٧٤ .
(١٠) مرآة الجنان ١/٣٦٧ .
(١١) التنبيه على حدوث التصحيف ١٩٠ بغداد .

من السبب الخفيف في (فعولن) ، وهو : (لن) ، وينتهي هذا البحر بالوتد المتروك ، فإذا واصلت الفك تركت مافي أول البحر الثاني ، وهكـذا حتى تنتهي الى آخر بحر في الدائرة وآخر بحر هـو البحر الذي اتّخذ أصـلا وأسـاسا ، وهـو (الطويل) .

ويبدو أن الخليل كان يرمز للحركة بدائرة صغيرة ، وللسكون بألف ، لأن الألف ساكنة أبدا ، فرمز السبب الخفيف الذي يتألف من حركة وسكون هـو : (lo) ، ورمز السبب الثقيل الذي يتألف من حركتين هو (oo) ورمز الوتد المجموع الذي يتألف من حركتين بعدهما سكون هـو : (loo) ورمز الوتد المفروق الذي يتألف من حركتين بينهما سكون هـو (olo) ، وتجـد ذلك واضحا عند ابن عبد ربه في العقد الفريد .

فإذا كانت الدائرة الأولى هي دائرة (المختلف) وأساسها (الطويل) كانت الدائرة كما ياتي :

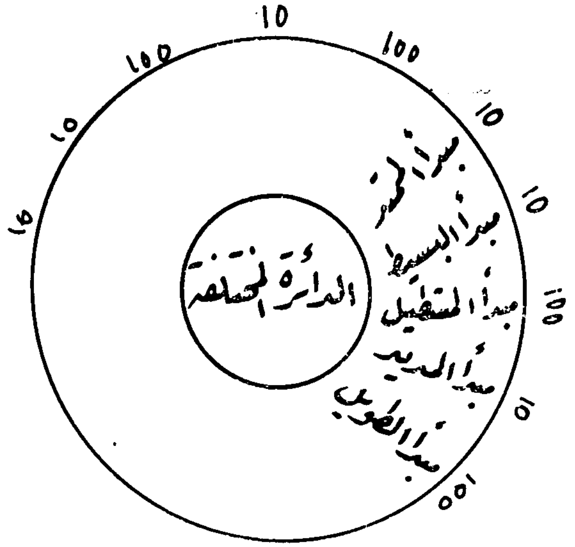

---

(١٢) ابن المعتز ـ طبقات الشعراء ٩٦ .

فالطويل في الرمز هــو :

loo lo loo lo lo loo lo loo lo lo

فعو لن مفا عيـ|ـلن فعو لن مفا عيـ|ـلن

فإذا أجرينا طريقة الفكّ جعلنا (لن) من فعولن الأولى مبدأ بحر آخر، واستقام لنا بحر جديد ، وقد سماه الخليل بالمديد ، والمديد هــو : فاعلاتن فاعلن أربع مرات ، ثنتان في الصدر ، وثنتان في العجز ، ورمزه هــو :

lo loo lo | lo loo | lo loo lo | loo lo

لن مفا عي | لن فعو | فا علا تن | لن فعو

ويحول الى : ... فا علا تن | فا علن | لن منا عي | فا علن

ثم يتخذ (مفا) من التفعيلة الثانية مبدأ بحر آخر ، فيستقيم بحر وكــان الخليل رآه مهملا لم يرد عليه شعر ، وسماه بالمستطيل ، وهو عنده : مفاعيلن فعولن أربع مرات ، ثنتان في الصدر ، وثنتان في العجز ، ورمزه هو :

loo lo lo | loo lo | loo lo lo | loo lo

مفا عي لن | فعو لن | مفا عي لن | فعو لن

ثم يتخذ السبب الخفيف الأول في (مفاعيلن) وهــو : (عي) مبدأ بحر آخر ، فيستقيم بحر ، وكان الخليل يسميه البسيط ، والبسيط هو : مستفعلن فاعلن أربع مرات ، ورمزه هــو :

lo lo loo | lo loo | lo lo loo | lo loo

عي لن فعو | لن مفا | عي لن فعو | لن فعو

ويحول الى : ... مستفـ|ـعلن | فا علن | مسـ تفـ ..علن | فا علن

ثم يتخذ السبب الخفيف الثاني من (مفاعيلن) الأولى ، وهو : (لن) مبدأ بحر آخر ، فيستقيم بحر كان الخليل يراه مهملا ، لم يستخدمه العرب في أشعارهم ، وسماه الممتدّ ، وهو عنده : فاعلن فاعلاتن أربع مرات ، ثنتان في الصدر وثنتان في العجز ، ورمزه هــو :

lo loo | lo loo lo | lo loo | lo loo lo

لن فعو | لن مفا عي | لن فعو | لن مفا عي

ويحول الى : .... فا علن | فا علا تن | فا علن | فا علا تن

وبهذا تمت الدائرة ، واستنفد الفكّ فيها ، فلم يعد هناك احتمال أن يستخرج وزن آخر ، لأنه إذا بدأ من حيث انتهى (الممتد) كان مبدأ الطويل، فإذا واصل الفك عاد إلى ما انتهى منه ، وهكذا الى مالا نهاية له ، وكان ذلك بمنزلة الدوران حــول دائرة مغلقة •

ولا أرى بي حاجة الى تطبيق هذا على الدوائر الأخرى لأن طريق القياس عليه واضحة ، وسأكتفي برسم الدوائر الأخرى ، وهي هذه :

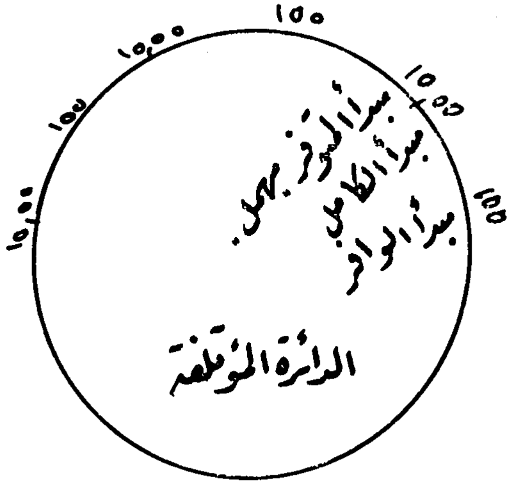

الدائرة الثانية .. أساسها الوافر

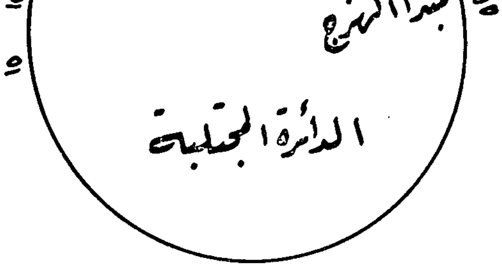

الدائرة الثالثة .. أساسها الهزج

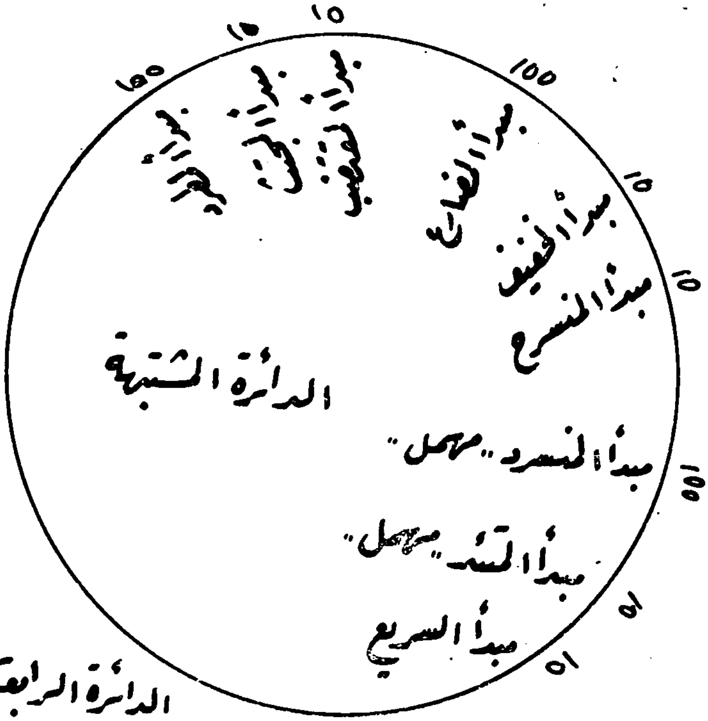

الدائرة الرابعة .. اساسها السريع

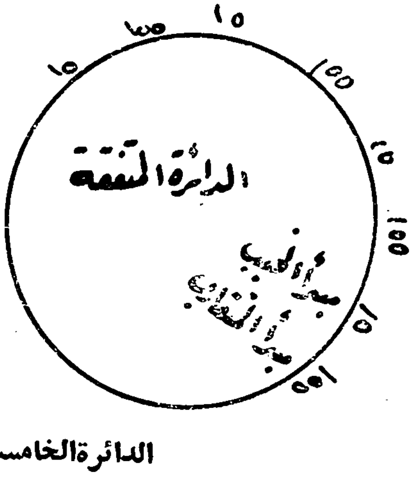

الدائرة الخامسة ..وأساسها المتقارب

وإنما عرضت لصنيع الخليل في استخراج البحور ، وأثبت الدوائر الخمس لأدفع وهما وقع فيه القدماء ، فقد جازت عليهم خرافة أنّ الأخفش سعيد بن سعدة كان قد استدرك على الخليل بحرا فاته ، وهو بحر (الخبب) الذي سمّي بالمتدارك ، وهو بحر اشتق من (المتقارب) أصل الدائرة وأساسها ، وكان الأخفش قد استطاع أن يمرر هذا الزعم على الدارسين ، حتى الحذّاق منهم ، وما يزال الدارسون يرددون هذه القولة في غير وعي .

فالذي يقف على عمل الخليل في استنباط البحور يجزم في غير ما تردّد أن بحور الشعر الستة عشر كلها من وضع الخليل ومن استنباطه ، واذا عرفنا أن سبيل العروض الى الدارسين بعد الخليل هو الأخفش ، وأن الدارسين الذين عاصروا الأخفش ولقوه لم يكونوا يحسنون الظن في أمانة الأخفش على آثار الآخرين ومصنفاتهم ... وضعنا أيدينا على مفتاح هذه الأسطورة التي زعمت أن الأخفش استدرك على الخليل شيئا ، ما كان معقولا أن يفوته؛ كما بينا .

وقد استعظم بعض الدارسين المحدثين أن يقف الخليل عند المتقارب ، ولا يتعدّاه ، كما ادعى الأخفش ، فأراد أن يعتذر له دون أن ينفي زعم الأخفش أو يشير الى بطلانه ، فقال عند الكلام على الدائرة الخامسة ، وهي دائرة (المتفق) : « وبقى الدائرة الخامسة ، وتعطيك بحرين فحسب، أولهما : المتقارب ، وثانيهما : المتدارك ، وهو الذي لم تصح روايته عند الخليل ، وصّحت عند الأخفش » (١٣) .

مع أنه نقل قبل كلامه هذا بقليل ما جاء في (مراتب النحويين) لأبي الطيب اللغوي ، وفى (انباه الرواه) للقفطي من شعر للخليل على الخبب أو ماسمّي بالمتدارك ،فقد ذكر أن للخليل بن أحمد قصيدة على (فَعَلُنْ فَعَلُنْ) بثلاثة متحركات وساكن ، وأخرى على (فَعْلُن فَعْلُن) بمتحرك وساكن .

فما كان على (فَعَلُن)محركة فقوله :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا ... فلبئس لعمرك ما فعلوا
أبكيت على طلل طربا ... فشجاك وأحزنك الطلل

(١٣) عبدالحفيظ ابو السعود ـ الخليل بن احمد ١٢٦ .

وما كان على (فَعْلَن) ساكن العين فقوله :

هــذا عمــرو يســتعفي مــن زيــد عنــد الفضــل القاضــي
فانهــوا عمــراً إني أخشــى صول الليث العادي الماضي [١٤] .

وسواء أكانت التفعيلة متحركة العين أم كانت ساكنة العين ، فالشعر من (الخبب) المشتق من (المتقارب) من دائرة (المتفق) .

وإذا افترضنا أن يكون (الخبب) مما لا يصح عند الخليل حقا ، كمـا زعم (أبو السعود) فان عدم وقوفه عليه بطريقة الفك مما لا يجوز مثله على الدارسين ، واذا كان الخليل قد وقف عليه ، وهو مما لاشك فيه ، فلابد أن يكون قد وضع له لقبا ، كما وضع القابا للبحور المهملة الأخرى ، كالمستطيل والممتد والمتوفر وغيرها ، وأكبر الظن أنه سماه بالخبب ، وهو اسم أشبه ما يكون بأوضاعه وتسمياته .

ويبدو أن بعض الدارسين المحدثين من المستشرقين وغيرهم لم يجز عليهم ما جاز على الدارسين العرب قدمائهم ومحدثيهم ، فلم يلتفتوا الى ماردده من أوهام .

فبروكلمان يرى أنه « لا خلاف بين العلماء على أن الخليل أيضا مبتكر علم العروض ، فقد وضع جميع مصطلحاته ما عدا (القصيد والرجز والسجع والخطب والروىّ والقافية والبيت والمصراع) » [١٥] .

وفون غرنباوم يرى أن « الخليل بن أحمــد (ت ١٧٥ هـ ، ١٩١ م) وضع قواعد العروض العربيّ ..... وقد بقيت قواعده معتمد الأدباء عبر القرون ، فقد أقر الخليل ستة عشر وزنا ، واطّرح بعض الأوزان الهزيلة [١٦] ، التي كان القدماء قد استنبطوها ثم إنه جرى على طريقة النحاة من بعد في الرمز لصيغة اللفظة فأشار الى وحدة الإيقاع الشعري بصيغة مشــتقة من (فعل) ، وعلى هذا جاء وزن الطويل ، وهو من أكثر الأوزان شيوعا في شعر الجاهليين » [١٧] .

---

(١٤) مراتب النحويين ٧٢ . انباه الرواه ١/٣٤٢ .
(١٥) تاريخ الأدب العربي ٢/١٣١ الطبعة العربية .
(١٦) لعله يريد العجوز المهملة .
(١٧) غرنباوم ـ دراسات فى الأدب العربي ١٣٥ بيروت .

وقد وقع بعض الدارسين المحدثين في وهم فزعم أن الخليل جاء بوزنين « أنكرهما الأخفش ، وأكد عدم ورودهما عن العرب ، وهما بحر المقتضب والمضارع ، وقد جعل الخليل لهذين البحرين أصلا وفرعا ، وادعى أنهما لم يسمعا إلاّ مجزوءين » [١٨] •

ولم يذكر الدارس أين وجد هذا ، ولا أشار الى أنه كان قد وقف على صنيع الخليل في استخراج البحور ، والخليل نفسه كان يرى قلة الشعر على المقتضب والمضارع ، وقد سمى المقتضب بهذا الاسم لقلته ، ومثله المضارع ، وكان الأخفش الذي زعم هذا الباحث له الأصالة ، قد سأل الخليل عن سبب تسمية البحور بهذه الأسماء ، وسأله عن المقتضب فقال له الخليل « لأنه اقتضب من الشعر لقلته ، قال : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضارع المقتضب » [١٩] •

فالاخفش لم يفعل شيئا ، ولم ينكر على الخليل أمرا ، لأن الخليل نفسه كان يرى قلة هذين الوزنين ، ولم يثبتهما لكثرتهما ولا سماهما إلاّ بما يشعر بقلتهما ، وقلة الشعر الذي ورد عليهما •

أما ذهاب الخليل الى أن لهما أصلا وفرعا فذلك مما اقتضته عملية الفكّ التي اصطنعها لاستنباط البحور وحصرها ، ولكن الباحث ، كما يبدو، ليس لديه فكرة عن الطريقة التي استخرج بها الخليل البحور •

كما وقع باحث آخر في وهم أيضا فجزم بأن الخليل كان قد تأثر باليونانية كثيرا جدا ، وأن العروض العربي صورة منقولة عن اليونان ، معززا رأيه هذا بأن (الباقلاني) في كتابه (إعجاز القرآن) كان قد استعمل كلمة (ميتر) اليونانية في معنى التفاعيل [٢٠] ولابد أنه أخذها عن السابقين له [٢١]•

(١٨) ابراهيم انيس ــ موسيقى الشعر ٤٨ •

(١٩) نور القبس ٧١ •

(٢٠) كلمة Metre ، فيما يبدو ، تطلق على البحر لا على التفعيلة ، يدل على ذلك ان (وليم رايت) استخدم المصطلح بمعنى البحر وذكر فى معرض الكلام على بحور الشعر العربي ان عدد البحور ستة عشر بحرا ، وعبر عن البحر بكلمة Metre
A Grammar of the Arabic Language. P.359, Vol. 11,

(٢١) على الجارم ــ محضر الجلسة السابعة ــ مؤتمر المجمع ١٩٤٨/١٩٤٩ •

وهو كلام يتضمن مزاعم ليس لها ما يؤيدها ، فتأثّر الخليل باليونانية زعم لا دليل عليه ، ولم يستطع هـذا الباحث أن يبيّن كيف تأثر الخليل باليونانية ، ولا كيف كان عروض الخليل صورة منقولة عن اليونان ، ولا وضّح كيف انتقل عروض اليونان الى الخليل ولا سمّى أحدا من الدارسين كان يمكن أن يكون سبيل العروض اليوناني الى العربية •

إن ورود كلمة (ميتر) في كلام الباقلاني المتوفى سـنة ٤٠٣ للهجرة لا يدل بحال على أن الخليل كان قد تأثر باليونانية ، أو أفاد من عروض اليونان شيئا ، لأن الباقلاني كان قد عاش في زمن كانت العلوم اليونانيـة قد ترجم كثير منها ، ووقف الدارسون عليها ، ومن اليسير أن تتصور انتقال بعض المصطلحات اليونانية الى الدرس العربي ، وورودها على ألسنة الدارسين•

يؤيدنا في هذا ما قاله البستاني في دائرة المعارف ، قال : « وفنّ العروض قديم عند اليونان ، ولأرسـطو فيه كتاب جليل (اطلب : عروض) لكن لا يمكننا القول إن الخليل اهتدى الى ذلك من الوقوف على كتب اليونان ، لأن هذه الكتب لم تترجم ، ولم تختلط علوم اليونان بعلوم العرب إلاّ في زمن المأمون ، وبعده ، والخليل مات قبل ذلك الزمان » (٢٢) •

ولو كان هذا الباحث الذي قال : إن العروض العربي صورة منقولة عن اليونان ، قد اطلق زعمه ، فقال بتأثّر العـروض العـربي بوجـه مـن الوجوه بعروض اليونان لكان على ضعفه أقرب الى مأخذ الباحثين •

على أن كلمة (الميتر) لم ترد في كلام الباقلاني نفسه ، ولكنها وردت في كلام محكيّ لثعلب لم تثبت صحته ، فقد حكى له بعضهم عن أبي عمر الزاهد غلام ثعلب « أن العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر ، كأنه على وزن : (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ، ويسمون ذلك الوضع (الميتر) ، واشتقاقه من المَتْر ، وهـو الجذب أو القطع ، يقال : مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته » •• فقال الباقلاني معقبا على هذه الحكاية : « ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره ، فيحتمل ما قاله » (٢٣) •

---

(٢٢) دائرة المعارف ـ البستاني ٧/٤٦١ •
(٢٣) اعجاز القرآن ٦٥ السلفية •

ولا أدري كيف فهم هذا الباحث من إيراد هذه الكلمة على هذا النحو أن الخليل كان قد تأثر باليونانية كثيرا جدا ، وأن العروض العربيّ صورة منقولة عن اليونان !!!

القافيـــة

ومن أجزاء البيت التي اختصها الخليل بعنايته ما اصطلح عليه بالقافية ، وكانت كلمة (القافية) مستعملة إلاّ أنها كانت تطلق على القصيدة كلها ، وسمع الأخفش أعرابيا يقول : «عنده قوافٍ كثيرة ، فقلت : [والقائل : الأخفش] وما القوافي ؟ فقال : القصائد » (٢٤) .

ومن هـــذا قول بعضهم :

وقافيـــة مثـــل حـــد الســـــنا ن تبقـــى ويهلـــك مـــن قالهـــا

يعني : القصيدة .

إلاّ أن الخليل جعلها اسما لجزء من البيت في آخره يعدّ بمثابة الأساس الذي تنبني عليه القصيدة ، وقد تناولها الخليل بالدرس ، وأوفى ، وسمى هذه الدراسة كلها بالعروض .

فعلم العروض يتناول دراســة الأوزان ، وما يعرضــ عليها من علل وزحافات ، وجزء وتمام ، ودراسة القافية وما يتصل بها ، وقد خصّ الخليل القافية بفضل عناية ، لأنها أوضح أجزاء البيت جرسا ، ولأنها الوحدة الموسيقية التي تنبني عليها موسيقى القصيدة ، ولأن فيها (الروىّ) الذي تنسب إليه القصيدة وتلقب به ، وتلزم في كل بيت في موضع واحد ، كقول الشاعر :

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقـــه وأومت إليـــه بالعيوب الأصابع

فالرويّ في هذا هـــو : العين ، وهو لازم في كل بيت في القصيدة .

والقافية عند الخليل مجموعة من الحركات والسكنات ينتهي بها البيت من القصيدة ، وتكون القصيدة كلها مبنيّة عليها ، وقد حدّدها تحـديدا ،

(٢٤) الأخفش ـ كتاب القوافي ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ٣ . دمشق .

فهي عنده : « من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن » (٢٥) .

فالقافية في قول امرىء القيس :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معا كجلمود صخر حطه السيل من علِ

هي قوله : (من عل) ، وفي قول الشاعر :

أقلي اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبت لقد أصابا

هي قوله : (صابا) .

والقوافي عند الخليل خمسة أنواع ، تبعا لأوضاع الساكنين فيها :

الأول : المترادف ، وهو ما اجتمع فيه الساكنان ، نحو : متفاعلانْ ومستفعلانْ .

الثاني : المتواتر ، وهو ما يكون الساكنان فيه مفروقين بحرف متحرك واحد ، نحو : مفاعيلن ، فاعلاتن .

الثالث : المتدارك ، وهو ما كان فيه بين الساكنين حرفان متحركان نحو : مستفعلن ، مفاعلن ، فاعلن .

الرابع : المتراكب ، وهو ما توالت فيه ثلاثة أحرف متحركة بين الساكنين: نحو : مفاعلتن ، مفتعلن .

الخامس : المتكاوس ، وهو ما اجتمع بين الساكنين فيه أربعة أحرف متحركة ، نحو : فَعِلَتُنْ ، والساكنان هنا هما نون (فعلتن) ونون التفعيلة التي قبلها (٢٦) .

والقوافي عند الخليل مقيدة ومطلقة ، فالمقيدة ما كانت غير موصولة ، والمطلقة : ما كانت موصولة ، ولكل منهما أنواع ليس هذا موضوع تفصيلها .

---

(٢٥) كتاب القوافي للأخفش ٦ ، كتاب القوافي للتنوخي ٤٣ . المعيار في اوزان الأشعار الشفتريني ٨٩ . مفتاح العلوم ٢٩٨ .

(٢٦) كتاب القوافي ـ الأخفش ٨ . مفتاح العلوم ٢٩٩ . الكافي في العروض والقوافي ـ التبريزي ١٤٧ ، ١٤٨ .

والمقيـدة نحـو :

أتهجـر غانيـة أم تلِـمْ ... أم الحبـلُ واهٍ بهـا منجـذِمْ

والمطلقـة نحـو :

ألا قالـت قتيلـة إذ رأتنـي ... وقـد لا تعـدم الحسناء ذاما

وكما وضـع الخليل ألقاب الأوزان والتفعيلات ، والعلل والزحافات وضع ألقابا للقافية وأنواعها وعيوبها •

قال ابن كيسـان ، يتحدث عن الخليل : « وسمى الحركات التي تلزم القوافي بأسماء ، كما سمىّ هذه الأشياء بأسمائها ، فقال في هذه الحروف : القافية والردف والصلة والخروج والتأسيس فكانت خمسة أحرف بخمسة أسماء ، فسمى معها خمس حركات بخمسة أسماء ، فقال : الرسّ ، والحذْو ، والتوجيه ، والمجرى ، والنفاذ ، فالرسّ : اسم للحركة التي قبل التأسيس ، والحذو : اسم للحركة التي قبل الردف ، والتوجيه : حركة ماقبل القافية المقيدة ، والمجرى : حركة القافية المطلقة ، والنفاذ :حركة الهاء التي يتبعها الخروج (٢٧) •

وتناول الدارسون علم العروض كماوضعه الخليل أبوابا وفصولا وقواعد وأصولا ومصطلحات وشواهد ، لم يزيدوا عليها شيئا ، وهو من المبتكرات في الدرس العربيّ ، وكان الخليل هو مبتكرها ، لم ينازعه أحد فيها ، ولا ادّعى أحد مشاركته فيها ، وكان هذا العلم كغيره مما املاه الخليل على تلاميذه، ولعل سيبويه كان أحدهم ، فقد عقد في (الكتاب) بابا لوجوه القوافي الإنشاد، من مـدٍّ ، نحـو : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلي •

ونحو : أقلّي اللوم عاذل والعتابا •

ونحو : سقيت الغيث أيتها الخيامو

أو تنوين ، نحو : يا أبتا علّك أو عساكنْ •

ونحـو :

يا صـاح ما هاج العيـون الذّرّفـنْ •

(٢٧) تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها ــ ابن كيسان ٤٨ (ليدن) ، ١٤ ، ١٥ تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي ــ بغداد •

أو ما يقيّد به الرويّ بترك المدّ والتنوين ، كقول الشاعر :

لا يبعد الله أصحابا تركتهم	لم أدر بعد غداة البين ما صنعْ

يريد : صنعوا ، وقد سمع ممن يروي هذا الشعر من العرب إنشادا .

وكإنشاد بعضهم قول جرير :

أقلي اللوم عاذل والعتابْ

إلى غير ذلك من الشواهد على ما يجري في الرويّ من مدّ أو تنوين أو تقييد (٢٨) .

وربما امتنعت هذه الدراسة على بعض تلاميذه حتى قيل : ان الأصمعي، على جلالة قدره في اللغة والرواية ، أراد أن يقرأ العروض عليه ، فلم يقع له ، وصرفه الخليل عنه ، فقد طلب الخليل اليه يوما أن يقطّع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئا فدعه	وجاوزه إلى ما تستطيع

ففهم الأصمعيّ قصده ، واقطع عن دراسته ، ولم يعاود الخليل فيه (٢٩) .

وقد نشر للأخفش سعيد بن مسعدة كتاب في القوافي ، ولكنه لم يأت بجديد فيه ، إلاّ بعض ماخالف فيه الخليل ، وهي مخالفة لا تمسّ أصول العلم ولا أمّات مسائله ، وربما كان الأخفش قد عقد أبوابا لم يذكر فيها إلاّ ماذكره الخليل ، كباب (ما يلزم القوافي من الحركات) (٣٠) ، وأبوابا لم يشر فيها إليه ، ولكنها تقوم على أقوال الخليل ومصطلحاته ، وينمّ على اعتماده على الخليل فيها تطابق العبارة ، وتصاقب الفكرة ، وإذا وازنت بين ما قاله الأخفش في باب (إجماع العرب في الإنشاد) وما جاء في باب (وجوه القوافي في الإنشاد) وهو أحد أبواب (الكتاب) وجدت الصلة بين البابين وثيقة حتى لقد تشابهت العبارة في عدة مواضع ، فعله في النحو وفعله في (معاني القرآن) وأخذه عبارات أبي عبيدة في (مجاز القرآن) وأفكاره

---

(٢٨) الكتاب ٢/٢٩٩ فما بعدها .
(٢٩) الخصائص ١/٣٦٢ . نزهة الألباء ١٥٤ .
(٣٠) كتاب القوافي ـ الأخفش ٣٠ .

من دون أن يشير إليه ، وقد عاتبه تلميذه أبو حاتم السجستاني ، فقال له : « الكتاب لمن اصلحه »[1] .

وقد فعل الأخفش هذا وكتاب أبي عبيدة بين أيدي الدارسين يقرءونه ويتدارسونه ، فإذا كان الخليل يملي علمه إملاء ، ولا يكتب بيده كانت فرصة الأخفش كبيرة للعبث فيما وصل إليه من أمالي الخليل ، ولادعاء بعضها ، كما فعل في العروض ، فقد زعم أنه استدرك على الخليل بحر الخبب الذي سمي فيما بعد بالمتدارك ، وجاز ذلك على الدارسين ، وما زال الدارسون يرددونه حتى صار مما لا يحتمل الجدال أو النقاش ، ولكن إنعام النظر فيما فعله الخليل والوقوف على خطته في استنباط الأوزان من الدوائر يكفي للردّ على من زعم أن الأخفش كان قد استدرك على الخليل شيئا .

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ٧٤ .

الخاتمـــة

وبعد فقد رأينا أنّ الدرس اللغويّ والنحوي إنما اقتضته الحاجة الى حفظ القرآن ، وصيانة نصوصه من التصحيف والتحريف ، وبدأ أول ما بدأ ساذجا يقوم على شتيت من الخطرات والفِكَر ، ثم أخذ يستقل عن الدراسات القرآنية بالتدريج ، ليصير دراسة على حدة لها شيوخ متخصصون، وحلقات درس على حدة أيضا •

وعرف دارســون بالتخصص في الدرس اللغويّ والنحويّ ، وكان هؤلاء يمثلون الطبقة الأولى التي عرفت الدرس النحويّ بمعناه الخاص ، وأشهر أعلام هذه الطبقة هم :

عبــدالله بن أبي إســحاق •

وعيسى بن عمــر •

وأبو عمــرو بن العلاء •

ولم يبلغ الدرس النحويّ ولا الدرســ اللغوي عند هؤلاء ما بلغاه عند الخليل بن أحمــد الفراهيدي ، فقد نضج الدرسان في عصره وعلى يديه خاصة ، وكان له فيهما نصيب المبدع المبتكر •

وكانت الحياة الاجتماعية في البصرة إذ ذاك حياة جديدة تلاقت فيها الأفكار ، وتفاعلت فيها الحضارات ، ولم يمض قرن من الزمان على تمصير البصرة حتى كانت أكبر الأمصار ، وأحفلها بالدارسين •

وكان في البصرة مركزان ثقافيان كبيران كان لهما أكبر الأثر في تطوير المجتمع البصريّ ، وكان لهما مشاركة لا تنكر في دفع الحضارة الإنسانية الى الأمام ، وتطويرها ، ثم نشرها في الآفاق •

كان اولهما : المسجد الجامع ،

وهو الذي أسس أول الأمر ليجتمع الناس فيه للعبادة والصلاة الجامعة ، والاجتماعات العامة التي يدعــو اليها الخليفة ، أو عمّاله في الأمصــار ، لإعلان الجهاد ، والنفير العام ، وكان مسجد البصرة الجامع كذلك ، ولكنه

حال الى منتدى للعلماء والمحدثين والقصاص ، تنعقد فيه مجالس الدرس ، وحلقات القراءة والوعظ واللغة والنحو .

وثانيهما : المربد ،

وكان المربد كسائر أسواق العرب ، سوقا لتبادل السلع ، ثم صار مثابة القبائل ، تجتمع فيه في المواسم ، ومعها خطباؤها ، وشعراؤها ، فيتفاخر الخطباء ، ويتناشد الشعراء ، فإذا انتهت المواسم تفرقت القبائل ، وعادت الى مواطنها .

وكان شعراء البادية ، وشعراء الحاضرة يختلفون الى المربد ، فيتناشدون فيه الشعر ، ويتفاخرون فيه بمآثرهم وأحسابهم وأنسابهم ، وانتقل اليه مجد عكاظ فصار ملتقى الشعراء والرواة واللغويين والنحويين .

يلتقي فيه الشعراء ليتناشدوا ، ويتفاخروا ، والرواة ليتلقطوا الغريب والنادر من فصيح كلام العرب ، والنحاة واللغويون ليشافهوا الأعراب ، ويراقبوا اختلاف اللغات أو اللهجات .

وكان الخليل لا يدع فرصة إلاّ افترصها في لقاء الأعراب والأخذ عنهم ، واذا عرفنا أن الخليل كان يحج سنة ، ويغزو سنة ، فإن سنة الحج كانت تتيح له فرصا كبيرة للقاء الأعراب في البوادي ، ومشافهتهم ، والإصغاء إليهم ، والإحاطة بما يستسيغون وما لا يستسيغون من تراكيب لغوية ، ومفردات ، ولهجات ، وربما شملت ملاحظاته أساليبهم في التعبير وطرائقهم في الأداء .

وكان من فرط ذكاء الخليل وحدة ذهنه ودأبه على طلب العلم أن استوعب ما كان في ذينك المركزين من ثقافات قديمة تتمثل في القراءة والشعر والخطب والأمثال ، وثقافات حديثة تتمثل في علم الكلام وأساليبه الجدلية ، وكان رائده في ذلك نهج في التعلم غاية في الدّقة .

فلما التقت في ذهنه كل تلك الثقافات تدارسها وتمثلها ، وأمدّها بفيض ما لديه من نبوغ وإبداع فإذا هي عطاء انساني ضخم ، طفر بالعقل من طور الفجاجة الى طور النضج .

ولم يبلغ الدرس النحوي ولا الدرس اللغويّ من النضج والاكتمال مثل ما بلغه عند الخليل فقد طفر بالنحو طفرة عجيبة لم يشهد تاريخ النحو مثلها ، وكان من مظاهر ذلك هذه المجالسات والأمالي التي تلقاها سيبويه عنه فجمعها في أول كتاب كبير في النحو ضمّ بين دفتيه نحوا كاملا في أصوله ومسائله •

أما الدرس اللغوي فقد كان عند الخليل ينحدر عن فكر لغويّ ناضج، فله من أقواله وآرائه ما يشبه أن يكون نظرية تامة التكوين في نشأة اللغة وفي تطورها ، وفي مجلسه وقف الدارسون أول مرة على ما يسمى الآن بعلم الأصوات اللغوية ، واذا كان علم الأصوات يعدّ من منجزات العصر الحديث فإن الخليل كان قد تناوله بالدرس منذ أكثر من اثنى عشر قرنا ، وتوصل الى تنائج سليمة أقرّ الدرس الحديث كثيرا منها •

وإلى الدرس اللغوي عند الخليل ينتهي علم الدارسين العرب بالاشتقاق وأنواعه ، وغيره من الموضوعات اللغوية التي تعد من موضوعات فقه اللغة الحديث •

والى علم الخليل باللغة ، وإحاطته بأساليبها واستعمالاتها ، وتراكيبها ومفرداتها يرجع التفكير بالتأليف اللغويّ ، ووضع أول معجم لغويّ حاصر للغة العرب ، وهو كتاب العين •

وكان كتابه العين مثل أي عمل أنجزه الخليل ، مثار اهتمام الدارسين ، وكان ، كأيّ أثر له ، موضع إعجابهم ، وكان مصدر الهام اللغويين الذين جاءوا بعده ، بل كان مادتهم في معجماتهم •

واذا كان الخليل مسبوقا بالدرس النحويّ أو الدرس اللغوي بوجه من الوجوه فإن علم العروض علمه الذي لم يسبق إليه ، ولم يشاركه أحد فيه ، ولم يزد عليه أحد فيه شيئا ذا بال •

وقد تناول الخليل في هذا العلم موسيقى الشعر وأوزانه ، وكان علم الخليل بالنغم والإيقاع سبيله الى علم العروض وكان الخليل أول من ألّف في الموسيقى ، وكان كتاباه : النغم والإيقاع مادة المؤلفين في الموسيقى •

والى الخليل يرجع كل ما في هذا العلم من أصول ومسائل ، ومن مصطلحات وألقاب ، وقد وضع ألقاب الأوزان والتفعيلات، والعلل والزحافات، وتوصل بفكره الرياضيّ الحاصر أن يحصر الأوزان التي قال العرب الشعر عليها ، وكانت الأوزان العربية في الشعر عنده ستة عشر وزنا ، واستخدم في الوصول إليها دوائره العروضية الخمس وسلك في استخراج الأوزان طريقة الفك التي عرضت لها في موضعها من هذا البحث ، وتأتي له من هذه الدوائر اثنان وعشرون وزنا ، ستة أوزان مهملة لم يرد عليها شيء من أشعار العرب ، وستة عشر وزنا مستعملة ، وهي الأوزان المعروفة عند العروضيين .

وقد استعظم بعض ذوي القصد السيء ، وبعض ذوي الغفلة ، وبعض المقلدين من الدارسين المحدثين أن يتفرد الخليل بهذه المنجزات العلمية ، فراحوا يتخبطون في المزاعم تخبطا ، ويخلطون في الآراء تخليطا .

فنسبوا الدرس النحويّ الى اليونان مرة ، والى السريان أخرى .

وشككوا في صحة نسبة كتاب العين اليه ، فنسبوه الى الهنود مرة ، والى الصينيين أخرى .

وأنكروا أن يكون علم العروض من مبتدعاته ومبتكراته ، فزعموا واهمين أن العروض العربي ، وهو عروض الخليل ، صورة منقولة من عروض اليونان .

وكانت حجج أولئك جميعا أوهى من خيوط العنكبوت ، فلم تصمد امام الحقائق ، ولم تثبت أمام حكم التاريخ بعظمة الفكر العربي الإسلاميّ ، وبعبقرية الخليل ، فراحت تتهاوى واحدةواحدة ، فلم تنل بالسوء عمل الخليل في النحو ، ولا استطاعت أن تمحو آثاره في كتاب العين ، أو لمساته في رسم منهجه وتخطيطه ، ولا قويت على طمس آثاره في العروض ، ولا وقفت الى إخفاء الحقيقة الناطقة بعبقرية الرجل الذي آمن بالعقل هاديا ، وبالعلم مرشدا ، وبالفكر وسيلة ، وبطلب العلم وخدمة الحضارة غاية ، فنأى عن كل مافي الحياة من بهرجة ، وعن كلّ مافي نفوس الناس من جشع ، وأغلق بابه دونه حتى لا يجاوزه همّه .

ومن العجيب أن يطلع علينا دارس معاصر بزعم متهافت ، فينسب عمل الخليل في النحـو واللغة الى عمل أرسطو في المنطق ، فقدم تقدم الى مجمع لغويّ له شهرته ببحث له عنوانه : (منطق أرســطو والنحو العربي) في مؤتمره الذي انعقد عام ١٩٤٨/١٩٤٩ ، وكان يرمي فيه ، من حيث لا يريد ، الى طمس آثار الخليل ، وتوهين عمله في الدرس النحويّ ، ونسبة ذلك الى أرسطو ومنطقه ، وقد جاز ذلك يومئذ على المؤتمرين الذين تجمعوا من هنا وهناك ، وقد مرّ بنا ذلك في موضعه من هذا البحث •

والأعجب من هذا أن يصرّ هذا الدارس على زعمه المتهافت ، فتتلقفه سلسلة (اقرأ) المعروفة لتعيد عزف النغمة النابية التي استمع إليها المؤتمرون قبل ثلاثة وعشرين عاما ، في حلقة جديدة رقمها : ٣٣٧ ، وعنوانها : (في اللغة والأدب) •

ولا يفسر هذا إلاّ بأنّ هذا الدارس كان معجبا بما ظن أنه انفرد به ، وكان مزهوّا بأنه أضاف الى العلم مالم يضفه إليه دارس من قبل •

وقد غرّه أنه مؤرخ الفلســفة في العربية المعاصرة ، وأن رأيه هــو المعوّل عليه ، وأنه هــو الذي ينبغي أن يستفتى فيما أشكل في هذا المضمار، فلم يكلّف نفسه أن يقرأ ما طبع ونشر من كتب ومقالات في خلال ربع قرن تقريبا ، وفيها أكثر من ردّ على زعمه ، وأكثر من حجة على تهافت قولته ، وأكثر من كشف لبطلان مدّعاه •

إنه الغرور الذي يســدل الغشاوة على العيون ، ويحكم الرتاج على العقول ، ويسدّ الكوى دون الأذهان •

ولكن النور يبقى متلألئا ، والحقيقة سافرة ، والعبقرية تفرض نفسها على الزمان فرضا •

ولن يضيرك ، يا أبا عبدالرحمن ، عقوق يرتكبه تلاميذك في هذا العصر ، كما لم يضرك من قبل حملات الحمقى ، واتهامات ذوي الغفلة ، ودعاوى أدعياء العلم •

فسينكشف الغطاء الذي ران على النفوس ، وينقشع الضباب الذي أشاعته نفثات الحقد والحسد ، وتبقى عبقريتك خالدة ، وعربيتك صافية ، وحرفك متألقا .

فإليك في عالم الخلود أبعث بهذه النفثة ، لتكون اعتذارا عن حمقٍ جاهل ، وحقدٍ أعمى ، وغفلة ساذجة حاولت في يأس أن تطمس الحقيقة ، وتحجب الشمس ، وتحـول دون الخلود .

ثبت المراجع

إخبار العلماء بأخبار الحكماء ــ القفطي ــ مطبعةالسعادة ــ القاهرة١٣٢٦هـ.
أخبار النحويين البصريين ــ أبو سعيد السيرافي ــ البابي الحلبي ــ القاهرة ١٩٥٥ .
الأشباه والنظائر ــ السيوطي ــ حيدر آباد .
إعجاز القرآن ــ الباقلاني .
الأغاني ــ أبو الفرج الأصبهاني ــ ط دار الكتب .
إنباه الرواة على انباء النحاة ــ القفطي ــ ط دار الكتب .
البحر المحيط ــ أبو حيان ــ الرياض .
البداية والنهاية ــ ابن كثير ــ .
بغية الوعاة ــ السيوطي ــ البابي الحلبي .
بلوغ الأرب ــ الألوسي ــ مطابع دار الكتاب العربي .
البيان والتبيين ــ الجاحظ ــ مطبعة الاستقامة .
تاريخ الأدب العربي ــ بروكلمان ــ الطبعة العربية .
تاريخ الحضارة الاسلامية ــ بارتولد ــ دار المعارف بمصر .
تاريخ العرب قبل الاسلام (القسم اللغوي) ــ جواد علي ــ ط المجمع العلمي العراقي
تاريخ الفلسفة في الاسلام ــ دي بور ــ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨
تاريخ اللغات السامية ــ ولفنسون ــ القاهرة .
تاريخ الموسيقى العربية ــ فارمر ــ دار الطباعة الحديثة ــ مصر .
تاريخ النقد الأدبي عند العرب ــ طه احمد إبراهيم ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧ .
التطور النحوي للغة العربية ــ برجشتراسر .
تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها ــ ابن كيسان ــ (تحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي) .
تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ــ مصطفى عبدالرزاق ــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤ .
التنبيه على حدوث التصحيف ــ حمزة بن الحسن ــ تحقيق الشيخ آل ياسين .
تهذيب التهذيب ــ ابن حجر العسقلاني ــ حيدر آباد .
تهذيب اللغة ــ الأزهري ــ المؤسسة العامة للتأليف والترجمة ــ دار الطباعة القومية ــ .
الجامع لأحكام القرآن ــ القرطبي ــ دار الكتب .
الجزء المطبوع من كتاب العين ــ الخليل بن احمد ــ (تحقيق الكرملي) بغداد ١٩١٣
جمهرة اللغة ــ ابن دريد .
الخصائص ــ ابن جني ــ دار الكتب .
الخليل بن احمد ــ عبدالحفيظ أبو السعود .

الخليل بن احمد الفراهيدي ـ اعماله ومنهجه ـ المخزومي ـ مطبعة الزهراء بغـــداد .
دائرة المعارف ـ البســـتاني .
دراســـات في الأدب العربي ـ بيروت .
رســـائل إخوان الصــفاء .
روح المعاني ـ الآلوســـي ـ إدارة الطباعة المنيريــة .
روايــة اللغــة ـ الشلقانى ـ دار المعارف بمصر .
شــذرات الذهب ـ ابن العمــاد .
الصاحبي ـ ابن فارس .
ضحى الاســـلام ـ احمد امين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعةالثالثة
طبقات الأطباء والحكماء ـ ابن جلجـل ـ مطبعة المعهـد العلمي الفرنسي ـ القاهرة ١٩٥٥ .
طبقات الشـــعراء ـ ابن ســـلام ـ المطبعة المحمودية التجارية بمصـــر .
طبقات الشـــعراء ـ ابن المعتز ـ دار المعارف بمصر .
العقد الفريد ـ ابن عبد ربه ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ط الثانية .
عيـــون الأنبـــاء ـ ابن ابي أصيبعة .
فتـــوح البلدان ـ البلاذري ـ مطبعة الموســـوعات ١٩٠١ .
فقـــه اللغة ـ وافي ـ مطبعة احمد مخيمر ـ ط ٣ (١٩٥٠) .
الفهرســـت ـ ابن النديم ـ المطبعة الرحمانية بمصر .
الكافى في العروض والقوافى ـ التبريزي ـ مجلة معهد المخطـــوطات العربيـــة (م ٢/جـ ١) ١٩٦٦ .
الكـــامل ـ المبرد .
الكتـــاب ـ سيبويه ـ بولاق .
كتاب الحيـــوان ـ الجاحـــظ .
كتاب العين ـ الخليل بن احمد ـ تحقيق الدكتور عبدالله درويش ـ مطبعة العاني ـ بغـــداد ١٩٦٧ .
كتاب القوافي ـ الأخفش ـ تحقيق الدكتور عزة حسن ـ دمشق .
كتاب القوافي ـ التنوخي ـ دار الاشاد ـ بيروت .
لسان العرب ـ ابن منظـــور ـ دار صادر ـ بيروت .
مجمـــع البيان ـ الطبري .
محاضرات الدكتور فـــؤاد حسنين .
محاضرات ليتمان .
محضر الجلسة السابعة لمؤتمر مجمع اللغة العربية ١٩٤٩/١٩٥٠ .
مختصر كتاب البلدان ـ ابن الفقيه ـ بريل .
مرآة الجنان ـ اليافعي ـ حيدر آباد .
مراتب النحويين ـ ابو الطيب اللغوي ـ مطبعة نهضة مصر .
المزهـــر ـ الســـيوطي ـ البابي الحلبي .

المعاجم العربية – عبدالله درويش .
معجم الأدباء – ياقوت – مطبعة دار المأمون .
معجم البلدان – ياقوت .
المعجم العربي – حسين نصار .
المعيار في أوزان الأشعار – الشنتريني – دار الأنوار – بيروت .
مفتاح العلوم – السكاكي .
مقدمة كتاب الانصاف – گوتولد ڤايل (ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار) .
المقنع – ابو عمرو الداني .
منتهى الوصول – ابن الحاجب .
منطق ارسطو والنحو العربي – ابراهيم بيومي مدكور – بحث قدم لمؤتمر اللغة العربية ١٩٤٩/١٩٥٠ .
منهج البحث واللغة – مايه ولانسون .
موسيقى الشعر – ابراهيم انيس .
الموشح – المرزباني .
نزهة الألباء – الأنباري – (الطبعة الحجرية) .
النشر في القراءات العشر – ابن الجزري .
النقائض – انطوني اشلي بيڤان – ليدن ١٩٠٥ .
نور القبس – المرزباني (اختصار اليغموري) تحقيق رودلف زلهايم .
وفيات الأعيان – ابن خلكان – مطبعة لسعادة ١٩٤٨ .

Gairdner, The Phonetices of Arabic
IDA G. WARD, The Phonetices of English.
Walter Ripman, English Phonetics.

فهرس الموضوعات

	رقم الصفحة
مقدمة	٥ - ٦
البصرة	٧ - ١٢
مراكز الثقافة في البصرة	
المسجد الجامع	١٣ - ١٨
المربد	١٩ - ٢٢
الخليل بن احمد الفراهيدي	٢٣ - ٢٩
مصادر علم الخليل	٣٠ - ٣٢
الدرس اللغوي عند الخليل	٣٣ - ٣٥
الدرس الصوتي عند الخليل	٣٦ - ٥١
رأي الخليل في اللغة نشأة ودلالة	٥٢ - ٥٧
التأليف اللغوي عند الخليل	٥٨ - ٧٤
الدرس النحوي عند الخليل	٧٥ - ٩٤
علم العروض { العروض، القافية }	٩٥ - ١١٣
الخاتمة	١١٤ - ١١٩
ثبت المراجع	١٢٠ - ١٢٢

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٩

الغلاف رياض عبد الكريم
السعر ٧٥٠ فلسا
طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة